DUPLICATE
CU02398524

نداء القـ

● بقلم ادبل زبداله هيكل

The Call of Heart -
Modern Arabic - Near East Christian Council - Rec'd 7/12/55

نداء القلوب

•

قصة من صميم تاريخ لبنان

بقلم

ادبل زيدان هيكل

بيروت ص. ب. ٢٣٥

١٩٥٣

رسم المؤلفة اديل زيدان هيكل

طبع في المطبعة الاميركانية بيروت

الفصل الاول

•

رسول ابرهيم باشا

ما اجمل لبنان ! وما اروع مناظره الخلابة وما تتلوّن بهِ من روعة وجلال ! ويخال لي انني اشاهد صورة مصغرة ارضية لجنة الخلد السماوية ... !

غالب ، صدقت يا جابر ، يقف الناظر امام هذا الجبل مبهوتاً لما يراه من القمم الشامخة المتوجة بالثلج « على مدار السنة » بجانب اوديته التي تكثر فيها المزارع والغياض الخصبة ، وما ابدعها وقد اكتست بابهى حلّة حاكتها يد الخالق العظيم ... اما جوّه « فكما ترى » مشبّع بعطور اشجار الصنوبر والرياحين الذكية ، ونسيمه العطر ينعش الارواح ويشفي السقام .

واعلم يا جابر بان موقع بيت الدين – مقر الامير بشير – القريب من معسكركم على كتف هذا الوادي ، آية من آيات الطبيعة في جمال منظره وروعة سحره ، لا سيما زمن الربيع حين ينثر الازهار المختلفة الالوان على ما حواليه من مروج وتلال . وكأن الربيع آلى على نفسه ان لا يترك شيئاً على هذه التلال والوديان ما لم يلمسه بانامله السحرية ،

فينفخ فيه الحياة ويحرّك فيه عواطف البهجة والسرور ، ويشيد عليه صروح البعث والانطلاق ، فكل ما في لبنان يهيب بالنفس للخلق والابداع والامل والرجاء .

كان جابر ضابطاً من ضباط الجيش المصري الاشداء وامين سر ابرهيم باشا قائد الجيش المصري ومرافقه الخاص ، رجل طويل القامة مستطيل الرأس ، اجعد الشعر ، عريض المنكبين مفتول العضل ، جبّار في الملمات ، سريع الخاطر ، حرّ الشمائل .

اختاره القائد المصري لبسالته واخلاصه ، واعتمده في المهمات السياسية الخطيرة وائتمنه على اسرارها . فكان عند حسن ظنهِ بهِ .

وفي مساء يوم من شهر ايلول سنة ١٨٣٨ حين كان ابرهيم باشا يعسكر بجيشه قرب ضواحي العاصمة التركية (استنبول) استدعى جابراً وقال له « لديَّ رسالة خطيرة ارغب في ايصالها للامير بشير الشهابي » وقد وقع اختياري عليك ، لما تحققته من اخلاصك واندفاعك في سبيل الوطن ، بجانب خبرتك في مسالك الطرقات الجبلية الوعرة ، فخذ هذه الرسالة واحتفظ بها الى ان تصل الى قصر الامير بشير فتسلمه اياها يداً بيد . ولا تتأخر في العودة ورد الجواب – سرّ على بركات الله .

فانحنى جابر امام قائده بعد ان ادّى التحية العسكرية ، واسرع الى مرابط الخيل فاسرج جواده الادهم وامتطاه وجعل يحثّه على السير . فكان يريح الجواد في اثناء النهار ويعود للسير المتواصل في الليل .

وبقي على هذه الحال اياماً عديدة يتخذ اقرب السبل الى هدفهِ ، ووصل الى بيت الدين قبيل الغروب ، فترجّل عن جواده قرب قصر الامير الذي كان يغص برجال الحاشية والجند ، وعلى جانبيه مرابط لمئات من اجمل الخيول العربية المطهمة .

فأسرع للقائهِ مملوك مصري استقبله على مدخل ساحة القصر وتسلّم مقود جواده وسار بهِ الى مرابط الخيل . اما جابر فسار مسرعاً الى مدخل القصر يستأذن الدخول على الامير الكبير .

فسأله الحاجب عن حاجتهِ : فاجاب : انني رسول ابرهيم باشا القائد المصري احمل رسالة منه للامير بشير ، وقد أُمرت بان اسلمها له يداً بيد .

فامهله الحاجب هنيهة : وعاد يشير اليه بالدخول . فدخل جابر متهيباً وانحنى مسلماً : ثم اخرج ملفاً كان يخفيه داخل ثيابه وقدمه للامير جاثياً . ثم نهض وعاد الى موقفه ينتظر الجواب .

وكان الامير الشهابي جالساً في قاعة العمود الكبرى يحيط به بعض اخصائه وكبار رجال ديوانه . ففض الملف وقرأ لنفسه ما يلي :

– الى الصديق العزيز وحليفنا المخلص الامير بشير الكبير دام عزّه

– ابادر لاعلمكم باشتعال نار الثورة في حوران وفلسطين ولا اظنها خافية عليكم ، غير ان الذي نقل الينا الخبر اكدّ انه يخشى امتدادها الى لبنان وسواحله . ولا يخفاكم ما يقوم به عمال الدولة العثمانية من بعث القلاقل وتغذية المشاغبات ، ويحاولون بشتى الطرق اثارة الفتن ودس الدسائس طمعاً بالاستيلاء على سوريا ولبنان .

فهل يمكننا الاعتماد عليكم وعلى جيشكم الباسل ، اذ ينضم الى جيشنا بغية الدفاع والذود عما استولينا عليه بحد السيف واراقة دماء جندنا . انني ارقب جوابكم السريع ودام بقاكم

حليفكم المخلص
ابرهيم محمد علي باشا

ولما اتمّ الامير قراءة الرسالة استدعي غالب العرباني رئيس حرسه وقال : مشيراً الى جابر قم بضيافة رسول ابرهيم باشا واكرم وفادته الى ان ادعوكما اليّ ...

فانحنى غالب ويده على صدره واجاب : امرك مطاع يا مولاي :

ثم اشار الى جابر وسارا معاً الى الثكنة العسكرية المختصة بالضباط واركان الحرب . وبعد ان استراح جابر وبدل ملابسه تناول طعام العشاء . ثم اخذ يدخن من التبغ اللبناني الفاخر الذي قدّم له مبالغة في تكريمه . وشاء غالب ان يرفه عن ضيفه مشاق السفر فسأله : هل يروقك الذهاب في نزهة قصيرة الى المروج القريبة ، نتمشى بين الكروم الجميلة نقطف من ثمرها ونتمتع الطرف بسحر منظرها ؟

فابتسم جابر وقال : اود ذلك مع الشكر « ولا يحتاج الرأي المليح الى مشورة » فهيا بنا .

سار الرفيقان الهوينا ، وابتعدا عن الثكنة العسكرية منفردين يستمتعان بالهدوء والسكينة ، ويروّحان عن نفسيهما بالسمر وسرد العبر .

وكانت الليلة من ليالي الصيف الرائعة ، والقمر يسكب فيضاً من نوره على الممرات المتشعبة على تلال بيت الدين القريبة من دير القمر ، وسارا جنباً الى جنب يتسامران ويتغزلان بجمال لبنان ويشيدان بروعة امسياته كما سبق . وقادهما المسير بالقرب من قصر جميل البناء بديع الهندسة

يقع على رابية عالية هادئة متوجة بالصنوبر ، امامه منفسح من الارض يفوح منها اريج الازهار ، ويعبق فيها عطر الزنبق والياسمين . وعلى جانبيه غرست اشجار التين والزيتون والكرمة . فوقف جابر وقد أخذ بعظمة القصر وجمال موقعه فسأل غالب :

لمن هذا القصر الفخم الذي انفرد بنائه في هذه البقعة الساحرة وامتاز بمناظره الرائعة ؟ ويخال لي ان صاحبه نقل صورة بناءه وهندسته عن ما نسمعه من وصف صور جنة الفردوس ، فاختار هذه الرابية العالية ، والجو الساحر لتجيء مطابقة لذلك الوصف .

ثم ابتسم وقال : لعل جمال السكان يفوق جمال المكان لان الجميل يبدع الجمال وكل جميل للجميل خليل .

فضحك غالب ضحكاً عالياً لسرعة خاطر رفيقه المصري واجاب :

انني اشهد لشعبكم المصري شهادة حق وانصاف ، بسرعة الخاطر وحسن الذوق اللذين لا يجاريكم فيهما احد ، وقد صدق القائل : جواب المصري تحت ابطه : « فالمصري مجبول بالذوق » وخفة الروح والبداهة .

وصمت غالب هنيهة ثم قال : يدعى صاحب هذا القصر

ابرهيم باشا ـ القائد المصري

الشيخ منصور الديراني وهو ينتسب للبيوتات العريقة في الحسب والنسب في لبنان ، له ابنة وحيدة ، وافرة الجمال نادرة المثال .

فضحك جابر وقال : هات واكثر من هذه الاوصاف الرائعة ، لنمتّع شبابنا المأسور ولنصل الى حقنا المهدور . ودعنا نصل من بيت القصيد ولو بالسمع ، فذكر الحوريات الفاتنات ، ووصف الجميلات الساحرات ، ينعش القلب ويشرح الصدر ويدنينا من اجواء النعيم .

فابتسم غالب واقترب من جابر وتأبط ذراعه وقال : دعنا من التغزل والتشبب في هذا الموقف يا صديقي . الا تعلم انه حرّم علينا نحن الشرقيين المجازفة ولو بالنظر الى من هو اسمى منا مكانة وانبل محتداً « لا سيما اذا كان في دار العظيم حريم » فلنبتعد عن النار ولا نلعب بها .

فقال جابر : عفوك يا صديقي . فالشاب يلذ له التحدث عن الغانيات الفاتنات كما يطيب للفتاة سماع اخبار الابطال الاشداء ، والتحدث عن بطولتهم « لا سيما ابطال الحب » وهذه غريزة طبيعية في كلا الجنسين . فلا لوم علينا ولا حرج ، واود ان تتم حديثك عن رب القصر . فقد راقني التعرف الى سيرته والاستماع الى تاريخه .

فقال غالب : اشتهر رب القصر بالتعقل والاعتدال وبموالاته للامير بشير ، وقيل ان بينه وبين الامير عقد عهد ومودة ، كما كان من اصدقاء الشيخ سعد مدبر الامير يوسف الشهابي عم الامير بشير الحالي ، وطالما سعيا معاً بحكمة ولباقة حتى يصلحا ما بين الامير وعمه من النفور ، فافلحا ولكن كان ذلك الى حين ، لان ولاة الدولة العثمانية كانوا قد فتحوا باب المزاحمة على الولاية والحكم في الجبل ولا يزالون ، فكان الوالي منهم يجود بخلعه الولاية والحكم ، على من يجزل له العطاء والضريبة ، دون التفات الى صفات الحاكم ومقدرته ، ولا الى مصلحة الشعب وحاجاته ، فاستطاعوا بذلك استنزاف مال اللبنانيين واراقة دماء ابطالهم ، واصبحت البلاد ملجأ للفتن والمشاغبات .

فتنهد جابر وقال : تتراءى لي الدنيا كأنها ميدان فسيح لنضال مستمر ، او مسرح نشاهد عليه البشرية في صراع دائم مخيف في سبيل السلطة والتوسع . فمنهم فريق يناضل دون اعياء ، فيتخطى الصعاب ويذلل العقبات بعزيمة وثابة ، وقلب ثابت ، وفي شجاعة نادرة ، وجرأة متوفرة حتى يصل الى ما يبغيه ، ويحقق آماله في الحياة وامانيه . والشاهد القريب على ذلك هو اقدام اميركم وعزيز مصرنا على ما ذكرت .

فهز غالب رأسه واجاب : صدقت يا جابر ، وبالصواب نطقت ، اما انا فيدهشني امر المتشاحنين على الامارة ، والمتنازعين على السلطة ، فكل يضرع الى ربه ان ينصره على الآخر تأييداً للحق ، غير ان الاسباب الحقيقية التي تدفعهم للصراع والحرب لم تكن سوى الطمع وحب السيادة كما ذكرت ، وكم يفضل الحيوان على الانسان ، لانه اذا تنازع حيوان مع آخر فانما يتنازعان على فريسة تشبع جوفهما تمسكاً بالبقاء . اما الانسان فلاتفه الامور يرتكب جريمة القتل .

فتأوّه جابر وقال : يحز الالم في نفسي عندما افكر فيما تقاسيه الشعوب من اهوال الحرب وويلاتها ، فكم خسائر في الارواح بجيشنا نزلت ! وكم شباب في ربيع العمر اردت ! وكم من اطفال يتمت ! وكم من نساء رملت ! وكم من امهات اثكلت ! وكم من مدن عامرة دمرت ! وكم من بيوت آمنة خرّبت لا لذنب الا حباً للفتح والسيطرة .

وما اتمّ جابر قوله حتى سمعا صوتاً رخيماً وانشاداً شجياً لابيات زجلية يرافقها طنين اجراس تحمله اليهما امواج النسيم وهدوء الليل الى ان اخذ الصوت يقترب منهما واذا المنشد يقول :

« لبنـان في هالكون مالك من مثيل
شبهوك بالحـال في الوجـه الجميـل
رقـة نسيم خمايلك تشفي العليـل
يا نفس ريتـك من اريجو تشبعي
لبنـان معبودي وديني ومركعي »

وكانت الوديان تردد صدى النشيد مقطعاً مقطعاً . ثم اخذ الصوت يخفت رويداً رويداً الى ان ابتعد عنهما واختفى بين الوهاد والهضاب .

فاستغرب جابر ذلك الانشاد في هدأة الليل وغفلة النائمين ، وما يرافقه من حنين وطنين ، فامسك بيـد غالب وسأله : من يكون المنشد صاحب الصوت الرخيم وما شأنه ؟

اجاب غالب : وقد غلب عليه الضحك وقـال : لا تستغربن ما سمعت يا جابر فهذه عادة متبعة في جبالنا يروّح بها الساري مشقة السفر عن نفسه . واكثر العامة في بلادنا يرتجل القصائد الزجلية ، فيتغزلون بفتيات احلامهم ويمدحون من يحبون من حكامهم ، ويهجون من يكرهون من اعدائهم والطريف عن هؤلاء الزجالـين انهم يبثون حنينهم بمن يحبون ويتغزلون جهاراً بمن يهيمون دون ان يجعلوا للشك سبيلاً لمـا يضمرون .

اما المنشد – صاحب الصوت الرخيم – فهو شاب يلقب بسمعان الدير . وهو زجال شهير ، صوته زخيم يتلاعب باوتار القلوب تلاعب النسيم المنعش باغصان الشجر . وهو متعهد بتموين الاديار « في هذه الديرة » فيحمل على بغاله وجماله القمح والذرة والزيت من السواحل مؤونة لسكانها من راهبات ورهبان ، الذين نذروا العفة والانقطاع عن العالم ، رغبة بالتعبد والتقشف . ولسمعان هذا حديث ذو شجون تردده العجائز على مسامع اولادهن واحفادهن للعبرة والموعظة ، ولو لم يدهمنا الليل لحدثتك بهِ وساترك سرد قصتهِ عليك لفرصة مؤاتية .

فقال جابر وقد اندهش مما سمع : يخال لي ان سكان جبل لبنان شعب متدين ورع ، متمسك بفروض ديانته محافظ على تقاليده ، ويدهشني تعداد اديارهِ انى توجهت .

اجاب غالب : صدقت يا جابر ، فعلى رؤوس كثير من مرتفعات هذا الجبل شيدت تلك الاديار كأنها قلاع او حصون ، وما اجمل قباب الاديار وهي ترسل صباحاً ومساء اصوات النواقيس تدعو الناس للصلاة والتعبد . فكل ما في لبنان يهيب بالنفس للعبادة والخشوع .

فقال جابر : وقد سحره ضوء القمر – وكان بدراً – المطل من وراء الجبال : ارى ان الجمال والحب يدبان

خلال انوار البدر وفي جميع كائنات لبنان . فيا لعظمة لبنان وروعة معالمه ...!

فابتسم غالب ابتسامة شفّت عن معان كثيرة ، ولم يتمكن من كبت تنهدة عميقة افلتت من بين شفتيه وقال : آه يا جابر ، لقد لمست وتراً حساساً من اوتار قلبي ، وأثرت اشجاناً خفية اكتمها عن كل مخلوق . فانا وحيد في هذا العالم ، لا اهل لي انتسب اليهم ولا صديق مخلص احدثه باسارير قلبي فيواسيني .. ولا رفيق رقيق يخفف عني وطأة الوحشة التي اعانيها ... فذكرك للحب يثير جراحاً اليمة في قلبي ... ويروّعني لاسباب توجب عليّ الكتمان . مع ان الحب الشريف وغايته الشريفة من عند الله ، لانه الوسيلة الوحيدة لتآلف القلوب وحفظ انواع الناس . وسبب نظام هذا الكون ، ولكن ... ما اشقى المحب الوضيع اذا احب فتاة « من ذوات الحسب والنسب » وكان دونها في اللقب والرتب .

وما عتم ان بلغ مسامعهما صوت النفير يعلن موعد رجوعهما الى الثكنة ، فعادا ادراجهما وكل يردد في نفسه ما دار بينهما من حديث وشجون .

الفصل الثاني

●

قصر بيت الدين

هو قصر ضخم البناء ، جميل الموقع ، بني على مرتفع يعلو ٢٥٠ قدماً عن الوادي و ٣ آلاف قدم عن البحر الابيض المتوسط ، تحيط بـه اشجار السرو والصنوبر احاطة السوار بالمعصم ، وتبدو كأنها حراس ساهرة على رب القصر العظيم . وطالما شيّد العظماء القصور الفخمة ، « غير ان القصور لا تخلق عظيماً » .

وقد استغرق بناء القصر نحواً من ٢٢ سنة ، عمل في بنائه ٢٠٠٠ عامل فكان البناؤون من الشوير في لبنان ، والحفارون والنقاشون من المتن والشوف فبدت على الجدران النقوش الجميلة الملونة ، والحفر المزخرف بالالوان الذهبية اللامعة ، وجميعها من مفاخر الصناعة اللبنانية . وخصصت قاعات عديدة للمحاكم وموظفي الحكومة .

وكان النجارون من دمشق ، فطعموا النوافذ والابواب بالصدف الجميل النادر ، اما الرخامون فجاؤا من ايطاليا ، وقد ابدعوا بانشاء الحمامات التي يندر وجودها حتى في

البلاد الاوربية ، وقد قسمت الحمامات الى قسمين كبيرين ، قسم للنساء وآخر للرجال يقوم على خدمتها عبيد للرجال وجوار للنساء . وعلت مساطب رخامية بديعة الصنع في جميع غرف الحمامات . فرشت بالسجاد الفاخر تعلوها المتكآت الوثيرة للاستراحة عقب الاستحمام ، وللساوى بشرب القهوة والنارجيلة .

اما الذي اشرف على البناء واتقه فهو رجل دمشقي الاصل اسمه موسى نصره من اسرة الطويل الدمشقية . « انتقل موسى هذا باولاده الذكور الثلاثة وبناته السبع من دمشق الى بيت الدين ليدير دفة العمل وهندسة البناء الى ان اكمل .

وطالما تترك الاماكن الشهيرة اثراً قوياً في العقل وتتسلط على الخيال قبل رؤيتها والتعرف على معالمها . وسرعان ما ذاعت شهرة قصر بيت الدين ، وتناقلت حديث عظمة صاحبه الامير بشير الكبير الخاصة والعامة ، لا سيما اخبار هيبته وعدله . حتى قصده الامراء ورؤساء القبائل من مختلف الانحاء يحملون اليه الهدايا الثمينة والتحف النادرة تقرباً منه وتوداً اليه .

وكان في عداد اولئك الزائرين امير عربي كريم ، رفيع الشأن ، يخضع لامره عشرة آلاف عربي تقطن سهول سورية

الجنوبية ، اسمه الامير محمود الفاعور . وكان يرافقه مئة فارس مغوار ، عدا حاشيته ، جلبوا معهم الهدايا النفيسة حملوها على جياد عشرة من اطيب الخيل العربية المطهمة . ولما اشرفوا على القصر اخذوا يطلقون البنادق وينشدون اناشيد المديح والتعظيم لصاحب القصر العظيم .

استقبلهم الامير بشير بالترحاب والاكرام حسب عادته ، وانزلهم على الرحب والسعة بعد ان قدّم لهم كل اسباب الراحة والسرور ، واقام لهم الحفلات الزجلية الرائعة ، تبارى فيها الشعراء والزجالون في مديح الاميرين الكريمين .

وكان الامير بشير شغوفاً باعمال الفروسية والبطولة ، يحاول ان يقيم لها الحفلات الرائعة بين حين وآخر ، يستعرض فيها العاب القوى وضروب المصارعة وسباق الخيل . ففي اليوم الثالث لقدوم الامير فاعور اقام الامير بشير استعراضاً شائقاً لفرسانه وميداناً فسيحاً للرماية وسباق الخيل . وذلك مبالغة في تكريم الضيف . فنزل الى الميدان نخبة من فرسان العرب المشهورين بركوب الخيل ، والماهرين في توجيهها وحثها في الميدان . ونزل الى الجانب الآخر نخبة من فرسان الامير بشير الجحّين في الرماية والسباق واخذ الفريقان بالتحدي والصياح ، كل يدعي البطولة .

وسرعان ما انقسم جمهور المتفرجين الى فريقين فريق يحمس فرسان العرب والآخر ينحاز لفرسان الامير بشير . فاخذوا يصفقون ويهزجون باصوات تشق عنان الفضاء ، يزيد في حماستهم قرع الطبول المتواصل .

واستمر الفريقان متعادلين في الرماية والسبق نحواً من ربع ساعة من الزمن . وشاء الحظ بعدها ان ينحاز لفرسان العرب ويخدمهم ، فجعلوا يصولون ويجولون بجماسة وافرة حتى رجحت كفتهم وربحوا الشوط الاول ، فاعتزوا بفوزهم وجعلوا ينشدون ويهللون افتخاراً بمهارتهم وبطولتهم ، ويشيرون من طرف خفي الى اخفاق فرسان الامير بشير ، يعزون ذلك لقلة درايتهم ، وعجز جيادهم عن اللحاق بهم .

وساء ذلك التحدي المؤلم الامير بشير ولم يطق ما سمعه من غمز مثير ، فسكت على مضض ، ولم يتمكن من كبت ملامح الغضب والاستياء التي بدت واضحة على وجهه ، فنهض من مكانه واستدعى مرافقه الخاص ، وامره بان يحضر فرسه الزرقاء التي اشتهرت بخفتها ووثبتها ، ولقبت (بسباقة الريح) واقترب من الامير العربي وقال : اختر لنفسك ثلاثة من نخبة فرسانك وانا اختار مثلهم ، واركب واياك كل الى جانب فرسانه ، ومن يغلب في هذا الشوط فهو الفائز نهائياً ويربح اكليل النصر .

فرحّب الامير العربي بفكرة الامير بشير وراقه عرضه . وتقدم الفرسان كل الى جانب اميره ، واعتلى كل فرسه ونزلوا الى الميدان ، فعلا التصفيق وارتفع الصياح واشتدت الحماسة كأن الجميع في معركة حربية حامية الوطيس .

وزعق الامير بشير زعقة مدوّية وقد شهر حسامه بيده يلوّح به ، فاندفع وراءه فرسانه اندفاع السهم وسرعان ما انجلى الموقف عن فوز الامير بشير وفرسانه على الفريق العربي . وانتصروا عليهم انتصاراً باهراً ، فطابت نفس الامير بشير وانفرجت اسارير وجهه . فادار عنان فرسه ناحية الامير العربي الى ان اقترب منه وقال : هل فاتك ايها الامير ان لكل ميدان رجالاً ولكل فرس خيالاً ، فالغلبة في الميدان هزيمة لا تطاق ، ولو كانت من باب اللهو والتسلية . وعاد الفريقان ينشدان اهازيج النصر والاعتزاز .

●

وشاء الامير ان يرفه عن ضيفه بعد تلك الغلبة فاقترح ان يصرف واياه يوماً بالرياضة المحببة لديه ، وهي الصيد والقنص والاميران يجيدان الصيد والرماية . واعتاد الامير بشير ان يحتفظ بانثى طير الحجل في قفص عنده لان طير الحجل كان يعشش بكثرة بين اشجار السنديان واحراج الصنوبر القريبة من بيت الدين وما يجاورها من قرى ومزارع .

وذلك تيمناً بزقزقتها التي توفر الغنيمة الباردة والصيد الوفير للصيادين . وليظهر للامير فاعور نفع الحيلة والدهاء كوسيلة للكسب والتوفيق .

فلما اقتربوا من الغابات امر الامير بشير رجلًا من حاشيته ان يضع القفص الذي حملوه معهم ، على بعد بضعة امتار من المكان الذي يرابط فيه ، فامتثل الرجل للامر . وبعد هنيهة سمعوا تلك الانثى المسماة (بالسركه) ترقزق زقزقة عالية تسمع لبعد شاسع لهدوء المكان وخلوه من المارة . ولم يطل الوقت حتى اطلت طيور الحجل واقتربت منها ملبية نداءاتها ، فاغتنم رجال الامير فرصة اقترابها من الانثى وبادروا باطلاق نيران بنادقهم عليها فاصابوا عدداً وافراً منها .

ولم يرق ذلك المشهد الامير العربي ولا استصوب تلك الوسيلة للكسب ، واظهر غيظاً لم يتمكن من كبته ، اذ رفع بندقيته واطلقها على تلك الانثى فقتلت للحال .

فاستاء الامير بشير استياء شديداً لقتل تلك الانثى الا انه كتم موجدته لئلا يسيء الى سنن الضيافة التي يحافظ عليها الشرقيون محافظتهم على شعائر دينهم ، فالتفت الى الامير فاعور وقال : هل ساءك توفيقنا وما غنمنا من الطيور غير المحرمة ؟

فاجاب الامير فاعور : كلا ايها الامير الجليل ، لم اكن لاستاء من ذلك قط انما الذي ساءني واثار غضبي ، خيانة هذه الانثى لبني جنسها ، وايقاعها اياها في شرك الصيادين الاعداء ، نتيجة زقزقتها ودعوتها لها ، فسببت هلاك الكثير منها ، بين انثى لا تزال تعول وتحضن فراخها وذكور كانت تلتقط الحشرات المؤذية والهوام الضارة عن النباتات والمزروعات النافعة ، واود ايها الامير العظيم ان يكون الاعدام رمياً بالرصاص جزاء كل خائن لجنسه وبني وطنه .

فابتسم الامير بشير وقال : ان الغاية تبرّر الواسطة ، والذي يصعب نيله بقوة السلاح يسهل نواله بالسياسة والدهاء . فهز الامير العربي رأسه غير موافق وقال : هذه عادة تستهجنها العرب وتنبذها نبذاً كلياً .

وعاد الاميران واتباعهما الى بيت الدين يتندران باساليب السياسة والدهاء ، وبقي كل منهما متمسكاً بوجهة نظره مصراً على احترام عادات قومه وتقاليدهم . واقام الامير فاعور سبعة ايام متوالية بضيافة الامير بشير الكبير ، لقي فيها مع حاشيته من ضروب الحفاوة والسخاء ومن كرم اخلاق مضيفهم ما اطلق السنتهم بالحمد والثناء .

الفصل الثالث

●

غالب العرباني

كان غالب في العشرين من عمره عندما انضم للجيش اللبناني تحت قيادة الامير خليل الشهابي ابن الامير بشير الكبير . واظهر غالب ضروباً من الفروسية والجرأة رفعته الى درجات الرقي والتقدم . فاصبح مرافقاً خاصاً للامير بشير ورئيساً لفرقة حرسه . ولُقب بالعرباني نسبة لقبيلة عربية احتضنته وهو لم يتم الثامنة من عمره . لان الاقدار الغاشمة شردته عن والديه ، وقست عليه دون رحمة ، اثر الثورة المشهورة بعامية انطلياس ولحفد .

كان الشيخ اسعد ابو خطار من عينطورا رجلاً مسناً يُعد في طليعة اعيان البلاد ، ذا هيبة ووقار ، معروفاً بالخصال الحميدة والاخلاق الرصينة ، له كرامة واعتبار عند قومه . غير ان الطمع والحسد كانا وما يزالان يدفعان صاحبهما الى تدهور الاخلاق والانزلاق في حمأة الاجرام والانتقام دون مبرر . فسعى طغمة من اولئك الحساد والطماعين الطغاة الى الوشاية بالشيخ اسعد لدى الامير بشير واثارة غضبه عليه ،

مدعين انه من زعماء الثورة ومروجيها والرجل بريء من التهمة .

ويندر ان يخلو عصر من العصور من مثل هؤلاء الوشاة الاثمة ، لتغلغل اللؤم والاجرام في نفوسهم الخبيثة . فاعتقله رجال الامير وسجنوه في قلعة جبيل ، واقيم على حراسته رجل شرس الاخلاق ، سامه العذاب اشكالاً والواناً ، تارة بضرب العصي ، ووضع الحديد المحمى على رأسه واخرى بجلده بالسياط المؤلمة . فمات ذلك الشيخ الجليل ضحية الحسد والوشاية ، شهيد الجور والظلم .

فاضطرت زوجه ام غالب ان تتوارى بوحيدها عن الانظار خوفاً عليه من نقمة الوشاة ، وهو كل ما تبقى لها من عزاء وامل في هذه الحياة .

وتدخلت الاقدار القاسية بتمثيل ادوار تلك المأساة المروعة ، فحالت بين الام وولدها بعد ان شردتهما بقساوة بربرية لا تحتمل ، ورمت كلاً منهما في معزل عن الاخر بعد ان اسدلت ستاراً كثيفاً على مصير كل منهما .

وام غالب رقدت في الغابات على طريق طرابلس مغشياً عليها عندما فرّت بوحيدها . وقبل ان اغمي عليها اومأت

لابنها ليفتش عن عين ماء في تلك الانحاء ويأتيها بجرعة منها لتروي غليلها وتطفي نار قلبها .

فذهب الغلام ، وجعل يفتش عن نبع او مسيل يعود بمائه لامهِ المعيية . وكان قد توغل بين الغابات الكثيفة ، وغابت عنه معالم الطريق التي سلكها . فسار يركض من جهة الى اخرى ، وكانت الشمس قد قاربت المغيب ، فافاض الغلام بالبكاء ، وجعل ينادي امه بأرق العبارات ، ويعود يندب سوء حظه بكلمات تفطر الاحشاء ، وكانت الاودية تردد صدى نحيبه وتعيد اليه صوت صراخه وبكائه .

●

والاقدار يد سحرية تمدها حين تشاء ، فساقت لنجدة الغلام بدوياً كان يرعى مواشيه في تلك الناحية اسمه ابو حامد . سمع صوت الغلام ينادي وينتحب فاتبع ناحية الصوت ، الى ان التقى بالغلام وجهاً لوجه ، فذعر غالب واراد الهرب خوفاً منه

فناداه البدوي وقال : لا تخف يا غلام : قف مكانك عليك الامان . فوقف غالب وقد نهكه التعب واعياه البكاء . واقترب البدوي منه واخذ يربّت على كتفه ويؤاسيه ، فركن الغلام اليه . وسأله البدوي عن سبب بكائه ...

فأخبره غالب بقصته وكيف اضاع امه .

وعاد البدوي يسأله عن حسبه ونسبه . . . اجاب الغلام : أعلمُ ان اسمي غالب فقط ولا ادري اكثر من هذا .

ورجع البدوي يصحب غالباً للتفتيش عن المرأة المعية .. ولكن دون جدوى . ولاقى ابو حامد صعوبة جدية باقناع الغلام كي يصحبه الى مضارب قبيلته . لكن ابو حامد اقسم له باغلظ الاقسام ، انه سيعود للتفتيش عن امه بعد ان يصل بالمواشي الى زرائبها .

فاذعن غالب للامر ، لانه لم يجد مخرجاً من تلك الورطة سوى الخضوع للامر الواقع واللحاق بالبدوي الكريم .

وبعد ان اوى الى ركن في جانب الخيمة اخبر زوجه ام حامد بقصة الغلام ، وروى لها ما جرى لامه وكيف اضاعها الغلام .

فقالت ام حامد : ليكن غالب بثابة ولدنا الذي فقدناه منذ سنة ، وكان بسن غالب ، فليبقَ عندنا وليكن سبب تعزيتنا . وبرّ ابو حامد بوعده لغالب ، فاخذ معه خمسة فتيان من اشداء قبيلته يحملون المشاعل والعصي وذهبوا ينتشون وينادون ام غالب . وقضوا قسماً كبيراً

من الليل في تلك الغابات آملين الاهتداء الى الضائعة ، لكنهم عادوا خائبين ، ولم يقفوا لها على اثر .

وانتابت غالباً حمى شديدة ألهبت رأسه وافقدته الوعي ، ولازمته عدة اسابيع يُصارع فيها الموت ويكافح الداء . وعقب ذلك الصراع المخيف انتصار الحياة على الموت . وعادت للغلام عافيته وتجددت قوته . لكنه نسي كل ما كان يذكره من زمن طفولته ونسي اسم ابويه اذ فقد ذاكرته اثر تلك الحمى الملهبة .

ونشأ غالب بدوياً يرعى الابل ويقود المواشي الى المراعي وموارد المياه ، ولم يتوان مرة عن تلبية اية خدمة تطلب منه . لكنه لقي من الصعوبات والنكبات مدة اقامته بين العرب ما يعجز عنه الوصف . فكم من مرة دهمته الذئاب ، عند عودته من المرعى . وكم من مرة اعترضت الافاعي السامة سبيله وافزعته ، ونفخت الثعابين المخيفة في وجهه وروعته .

وكان افظع ما مرّ به من الحوادث الرهيبة حادثة خطيرة تقشعر لهولها الابدان اذ حدث ذلك في مساء يوم من ايام الربيع عندما اقتاد الابل والمواشي الى موارد المياه حسب عادته . فشرد هجين عن القطيع واخذ

يعدو بين الحقول ، يدوس الزرع ويتلفه فتبعه غالب وجعل يصيح به ويهوّل بعصاه عليه ، ليرده الى القطيع .

وفي زمن الربيع تهيّج الجمال هيجاناً مخيفاً ، يخشى منها ، فخطر لغالب ان يركب الهجين كي يتمكن من تهدئته ، ويسير مع القطيع ، فعقل الهجين بيده ورجله كيلا يعود الى الشرود ويهجم على عابري السبيل . اما الهجين فأخذ يعرّ عريراً مخيفاً ، ويخرج الزبد والرغوة من شدقيه بشكل مرعب .

ولم تكن عصا الراعي تفارق يد غالب ، فضرب الهجين على رأسه قصد تهدئته واللحاق بالقطيع . وسرعان ما حنق الهجين وجعل يعدو ويعرّ ويشدّ عقاله حتى انقطع . فدار على نفسه ورمى غالباً عن ظهره ، ثم جثم فوقه واخذ يعركه بقوائمه بغية قتله والانتقام منه .

وشهد تلك المعركة الوحشية البدوي ابو حامد بينما كان في طريقه الى عين الماء ، فاسرع واطلق نيران بندقيته على الهجين الهائج ، فاجفل الهجين ونهض يعدو مسرعاً .

واغمى على غالب من هول الصدمة . فاسعفه ابو حامد برش الماء على وجهه ، فافاق من غيبوبته . وهنأه ابو حامد على سلامتهِ وشكر الله على حفظ حياتهِ .

وكان لشيخ قبيلة عرب ابي حامد – واسمه حسان – ابنة جميلة سمراء الوجه ، جذابة الملامح ، لطيفة المعشر ، حادة الذكاء اسمها علياء . وكانت ام الفتاة من قبيلة عربية بعيدة ، التقى بها الشيخ حسان في احدى الامسيات وهي عائدة عن عين الماء ، فراقه حسنها ، وضمها الى نسائهِ بعد ان افرز لها خباء منفرداً تقيم بهِ وحدها ، ورزق منها الفتاة علياء ، فكانت صورة مصغرة لامها . واولع بها ابوها وميزها على جميع ابنائهِ .

واعتاد الشيخ حسان ان يتغيب عن مضاربه قصد الغزو وكسب العيش حسب عادة العرب . وعلم بغيابهِ فتى كان يهيم بام علياء قبل زواجها وهو من ابناء قبيلتها . فخطر له ان يمرّ بالخباء آملاً ان يرى فاتنته بالامس .

وعلم الشيخ حسان بمرور الفتى الغرّ واقتحامه المضارب ، فغضب غضباً شديداً ، وصمم على قتل زوجه والتخلص من عارها . وما عتم ان نفّذ الامر وقضى على حياتها .

وشاء الشيخ حسان ان يرفه عن فتاتهِ وينسيها فقد امها فسمح لها بركوب فرسه للرياضة والترويح عن النفس ، فكانت تمتطيها كل مساء تسير بها الى موارد المياه .

وطالما التقت علياء بغالب في ذهابها وايابها ، فتوطدت

بينهما اواصر الالفة والصداقة . وكثيراً ما كانا يتسابقان ويلعبان معاً ببراءة الاطفال . وكان غالب قد بلغ السابعة عشرة من العمر ، والفتاة في الرابعة عشرة من عمرها .

وللبدويات عين نقادة ، وبصيرة واعية ، فاحتاطت جدتها ام ابيها للامر ، وحظرت عليها الذهاب الى العين ، او التحدث الى غالب .

وكان غالب يجهل امور الحياة وتقاليد القبيلة التي احتضنته ، وخفي عليه سبب تخلف رفيقته عن لقائه .

واعتاد الشيخ حسان ان يصحب فتاته الحسناء عليا. الى نهر قريب كل مساء ، ليتفقد قطعانه ومواشيه لدى عودتها من المراعي . وكان لا بد لتلك المواشي من الخوض في النهر لتصل الى حظائرها . فقطعت الابل والدواب النهر بسهولة ووصلت سالمة الى الشاطيء الاخر . وجاءت بعدها بقرة ولادة تجري في اثرها عجلة رضيعة افلتت من المربط ولحقت بامها . تخاف الشيخ على العجلة من الغرق ووقف يفكر في طريقة ينتشلها بها من الماء ويتلافى موتها غرقاً . وسرعان ما انقلب خوفه الى دهش ، وتعجب حين رأى العجلة تخوض الماء وتصل الى الشاطىء سالمة .

فالتفت الى عليا. وقال : يا للعجب .. كيف استطاعت

هذه العجلة الرضيعة خوض الماء بسهولة لم اقدرها ؟

فضحكت علياء واجابت : ألا تعلم يا ابي ان ابنة (الخوّاضة) خوّاضة . فنزل جواب علياء كالسهم على قلبه ؛ فاستل خنجراً من وسطه وهوى به على عنقها وقتلها شر قتلة . واشار الى جثتها يطأها بقدميه قائلاً : كوني عبرة (انتِ وامك) ، لكل اثيمة وعظة لكل شريرة . اما كلمتها الاخيرة التي سببت قتلها فذهبت مضرب المثل عند العرب الى يومنا هذا .

وخشي غالب على حياته من غضب الشيخ حسان عندما علم بقتلها ظناً منه انه علم بصداقته لعلياء وقتلها بسببه . فاضطربت افكاره ، وتراكمت عليه الوساوس ، ولم يذق طعم الكرى طيلة ليلة موت علياء . ولم يجد مخرجاً من هواجسه وسهاده سوى الفرار بنفسه ، والابتعاد عن تلك القبيلة .

وما انتصف الليل حتى نهض ، وجعل يمشي بخفة وحذر كيلا يشعر بهربه احد . وسار مسرعاً يعيد في قرارة نفسه كل ما قاساه من الاهوال وما ناله من المشقات والنكبات طيلة السنوات التسع التي قضاها في كنف العربان .

وواصل غالب السير بالسرى اياماً عديدة وليال متوالية . وقد مرَّ في رحلته على مزارع وقرى عديدة لم تطب له الاقامة في واحدة منها . وقادته الصدف الى قرية العاقورة المرتفعة . فراقه موقعها واعجبه لطف اهلها ، فاعتزم البقاء فيها .

وبدا غالب شاباً نشيطاً ، قد تم نضجه ، وطالت قامته وبانت رجولته ، وظهرت قوته بعد ان قاسى الامرّين من خشونة العيش وشظفه . ولم تكن تلك الخشونة لتخفي معالم طلعته الوسيمة فالناظر اليه يرى رجلاً عريض المنكبين ، مفتول الساعدين ، تطل الرجولة من عينيه الحادتين . وكان قد ارخى شعره ذوائب عديدة على عادة البدو ، وكان يتلثم بالكوفية والعقال ويلبس عباءة مخططة بالوان بيضاء وسوداء . ولم تكن عصاه تفارق يمناه ، فقد رافقته في السفرات ، وكانت سلاحه في النوائب والملمات . وقصد غالب دار عميد القرية واسمه (الشيخ عماد هاشم العاقوري) والتمس منه ان يلحقه بخدمته واظهر استعداده للقيام بكل عمل يطلب منه .

فسأله الشيخ عماد عن حسبه ونسبه . فاجاب غالب : نشأت عند البدو يا مولاي ، ولم اكن اعلم انني ربيبهم ولست منهم . وعلمت ذلك عندما فاجأني بذلك راعٍ

من البدو عندما تشاجرت واياه بسبب امور صبيانية سخيفة . فاشبعني سباً وشتماً وقال عني اني لقيط شريد . وانا لم اكن اعرف نسبياً لي منهم او من غيرهم . فساءني ذلك التشهير وتركت مضارب العرب ، الى ان وصلت الى قريتكم العامرة ، واسمي غالب العرباني - وسترى مني يا سيدي ما يسرّك ويرضيك .

فاعجب الشيخ عماد بطلعته الوسيمة ورجولته الفذة ، فاعتمده في تدبير شؤون حقوله ومواشيه .

واشتهر الشيخ عماد هاشم العاقوري بضروب الفروسية وفنونها ، كضرب السيف واطلاق الرصاص ، وما يتعلق بفن السلاح . فاصبح قبلة انظار الراغب بالتدرب على ضروب الفروسية وفنونها وكانت تلك الفنون في ذلك العصر بمثابة التدريب العسكري في الامم الراقية ، بل انها كانت معرضاً تعرض فيه الرجولية والفروسية . فكانوا يمرسون انفسهم على تلك الالعاب الحربية استعداداً لنزول ميادين القتال عند الحاجة .

وطاب لغالب التدرب على تلك الاساليب ، فالمَّ بفنونها وفاز على اترابه المتدربين لنشاطه وقوة عضلاته .

وبلغت اخبار الشيخ عماد واجيره غالب العرباني

مسامع ابرهيم باشا القائد المصري . فطلب من الامير بشير دعوة الرجلين ليتثبت مما يروى عنهما .

فلما مثلا بين يدي الامير والباشا ، ضرب الشيخ عماد بسيفه قضيباً من الحديد ملفوفا باللباد فقطعه نصفين . واطلق غالب الرصاص على طير سريع فاصابه ، وضرب بسيفه ثور بقر فشطره شطرين ، مما ادهش الامير والباشا .

فانعما عليهما الانعامات الوفيرة مكافأة لبراعتهما وفنهما . واعجب الامير بشير برجولة العرباني ، فعرض عليه الانضمام الى الجيش اللبناني . فرحب غالب بالفكرة وانضم للجيش لتوّه . واخذ يتقدم من رتبة الى رتبة الى ان اصبح رئيس حرس الامير بشير وملازمه الخاص .

الفصل الرابع

●

لمياء الديراني

«حواء قد اورثته الحسن اجمعه
الا قليلا على الغادات قد قسما

فقلت فلتحيا (لميا) مسوّدة
بحسنها ما بدا بدر بافق سما

هذا ما انشده احد الشعراء في الغادة الحسناء لميا ، وهي اذا اطلت على الزائر تبدّى لناظره قامة هيفاء ، يعلوها وجه جميل ، متناسق القسمات . تتقد فيه عينان ساحرتان تشعان فتنة وذكاء ، يضفي على ذلك كله انوثة مستحبة ناعمة ، تأخذ بمجامع القلوب . وبالتالي لقد كانت آية في الخَلق والخُلق .

وأُولعت لمياء بركوب الخيل منذ نعومة اظفارها ، فتمرست بالرياضة والسباق وطالما تخفت بالعباءة وتلثمت بالكوفية ، تتحدى الفرسان ، وتدعوهم لمنازلتها في الميدان وهم يجهلون امر ذلك الفارس المغوار ، ويتساءلون عن اسمه .

لمياء الدبراني ـ بطلة القصة

ولمياء ابنة الشيخ منصور وحيدة لابيها الذي رعاها بحنانه ، وخصّها بعطفه تعويضاً لما خسرته من عطف الام ، التي قضت نحبها ولمياء في دور الطفولة .

ورغب ابوها في تعليمها وتثقيفها مع قلة المتعلمات في عصرها . فتلقت العلم على وردة التركي ابنة الشاعر نقولا التركي المقرب من قصر الامير بشير . وكانت وردة خير مثقفة في ذلك العصر . ولا غرابة في ذلك وقد نشأت في بيت علم ، وتثقفت ثقافة عالية ، بجانب ما تحلّت بهِ من نبل وفضيلة ، وما اشتهرت به من الادب وحسن الكتابة . وقد امتدحتها الشاعرة الناثرة الشهيرة وردة اليازجي بابيات من قصيدة بعثت اليها بها مطلعها :

يا وردة التركي اني وردة العربِ
فبيننا قد وجدنا اقرب النسبِ
اعطاكِ والدك الفن الذي اشتهرت
الطافه بين اهل العلم والادبِ
قد شرفت قدر هذا الفن بارزة
بحسن لطف ورأي غير مضطربِ
تزين الطرس في خط تنمّقه
فينجلي مثل عقد اللؤلؤ الرطبِ

وهكذا نشأت لميا. وترعرعت على اخلاق سامية مع جمال ساحر وتعقل نادر ، فحام حولها الطلاب وتودد الى والدها الامراء والخطاب . ولم تتجاوز السابعة عشرة من عمرها .

ففي صباح يوم باكر طاب هواؤه ورق نسيمهُ من ايام شهر نوار سنة ١٨٣٩ وقد شمل الهدوء بلدة دير القمر ومرتفعاتها الجبلية حيث يقيم الشيخ منصور الديراني وابنته لميا. في قصره الفخم ، وحيث لا يعكر صفاء ذلك السكون سوى صياح الديوك المتواصل اشارة لقرب انبلاج الفجر ، استيقظ الشيخ منصور باكراً حسب عادتهِ . وجلس على مرتبته ، امامه ادوات القهوة وعلبة التبغ والغليون . وما عتم ان سمع وقع حوافر جواد بالقرب من القصر ، فنادى ياقوته مربية لميا. لترى من القادم ؟

وعادت المربية تحمل رسالة جاء بها رسول من قبل الامير خليل ، يدعوه بها وابنته لميا. لحضور حفلة سباق يود ان يقيمها على شرف بعض المشايخ والامراء .

الفصل الخامس

●

حفلة السباق

عادت لمياء فيمن عادوا من فرسان ومتفرجين من حفلة السباق ، وقد شعرت بخفقان في قلبها وبرودة تسري في اطرافها ، سببا لها قلقاً في نفسها ولم تدرِ الى مَ تعزو كل ذلك . ولقد ازدان الميدان الفسيح في بلدة بيت الدين بالاعلام الخفاقة والازهار العطرة ، واقيمت المقاعد المرتفعة تطل على الميدان ومعالم الزينة الفخمة .

واعطي كل ذي كرامة كرامته ، وعيّن لكل مجلسه حسب مقامه ورتبته . يتقدم ذلك الجمع الغفير الشيخ الجليل منصور الديراني ، صديق الامير بشير المقرّب ، والى جانبه ابنته لمياء . وكان الامير بشير متغيباً عن بيت الدين يومئذ . فناب عنه بتنظيم الحفلة واستقبال المدعوين الامير خليل اكبر ابنائه .

ولما انتظم عقد المدعوين اقترب الامير خليل من الشيخ منصور ، وطلب اليه ان يكون حكماً للمتسابقين

والرماة . وسأله ان يسمح لابنته لمياء بتتويج رأس الفائز باكليل النصر . واردف يقول : ومن يكون اولى بهذه المهمة . وهي من ربات الميدان .

والتفت الشيخ منصور ليعلم رأي ابنته في ذلك . فاحمرّ وجهها خجلًا ، ثم احنت رأسها وقالت : لتكن مشيئة الامير !

فوقف الامير خليل امام المدعوين واعلن ذلك وامر ببدء السباق . واسرع الفرسان يحثون جيادهم ويدفعونها بالمهاميز ، وصياحهم يشق عنان الفضاء . كل ينادي متحمساً ومتحدياً من ينازله في الميدان .

وجرت الخيل ثلاثة اشواط متوالية ، فاز فيها الضابط الشاب غالب العرباني وكان المجلي على رفاقه بالرماية وضروب الفروسية . وادهش جمهور المتفرجين بالعابه المختلفة فكان يترجل عن جواده ويعود فيمتطيه والجواد مندفع باقصى سرعة الى غير ذلك من اساليب الجرأة والبطولة . فصفق له جمهور المتفرجين مراراً وحيوه تكراراً . ووقف الامير خليل وهنأه بعد ان اعلن الحكم فوزه واشاد ببطولته ، ثم اقتاده الى الصفوف الامامية وقدمه الى الشيخ منصور وابنته لمياء . واثنى على بطولته وفوزه . واشار الى لمياء ان تضع اكليل النصر على

رأسه . فوقفت لميا. يخفرها الحياء ، وتعالو وجهها حمرة الخجل ، ورفعت يدها بالاكليل وتوجت به رأس غالب وقالت والبسمة على شفتيها : اهنئك ايها الفارس المغوار والبطل الجري. ، فبامثالك تعتز الاوطان ، وببطولتك تتغنى (صبايا لبنان) !

ومدّت يدها وصافحته : اما غالب فلم يدرِ سبب تلعثم لسانه وهو يتمتم بعض كلمات الشكر وانحنى امامها يتراجع ببطء الى موقفه ، وسرعان ما شاعت في اعينهما جواذب سحرية جمعت روحيهما وربطت قلبيهما برباط الحب الطاهر . فصمتا متهيبين . كل ينظر خلسة الى رفيقه .

واصبحت لميا تقضي نهارها ساهية وليلها ساهرة ، تعيد في مخيلتها ذكرى ذلك الفارس المغوار الذي ملك قلبها واسرها هواه .

ولم يكن غالب اقل شروداً في الذهن منها فاصابه قلق ممض طيلة لياليه ، وانصرف للعزلة والانفراد ، يلذ له التفكير بمن سلبت لبه وملكت شغاف قلبه ، وما تخفى دلائل الحب مهما حاول المحب اخفاء ذلك وقد قيل :

دلائل الحب لا تخفى على احدٍ
كحامل المسك لا يخلو من العبقِ

وطاب لبعض الحساد وارباب الغايات السافلة ترويج الاشاعات ونشر الاقاويل الكاذبة المختلفة عن هيام غالب بلمياء .

وهذه عادة ذميمة ، ومهنة سافلة يزاولها اهل القرى في كل عصر من العصور . فهم ميالون بطبيعتهم لذلك ، لضآلة ما يتلهون بهِ من عمل وانتشار البطالة فيعمدون الى اذاعة الاخبار ، ونقل الاسرار كما تصورها لهم افكارهم ، فيجسمونها ويبالغون في سردها ونشرها .. وانتدب الامير خليل ، الضابط غالب العرباني للذهاب الى قصر الشيخ منصور بعد ان حمّلهُ رسالة رقيقة يستفسر بها عن صحته بعد ان علم بوعكة صحية انتابته فجأة .

فاستقبلته ياقوته مربية لمياء واعتذرت عن تخلف مولاتها لمقابلته . فاقتطع ورقة صغيرة من مفكرتهِ وكتب عليها ما يلي :

امرّ على الديار ديار سلمى اقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

وسلم الورقة لياقوته وطلب اليها ان تسلمها لمولاتها على حدة وعاد ادراجه تضطرم في قلبه نيران الشوق والهيام .

الفصل السادس

●

حكاية سمعان الدير

ابطأ الامير بشير بالرد على رسالة ابرهيم باشا ، بسبب تجهّم الجو السياسي على اثر نفور الشعب اللبناني وغضبته ، لاستبداد الجند المصري الحليف باهل البلاد . فاضطر جابر للاقامة اياماً في بيت الدين يرقب الحوادث عن كثب ، وينتظر جواب الامير للباشا .

وفي ليلة صافية الجو هادئة المعالم من شهر تشرين الاول سنة ١٨٣٨ وكانت الكروم في ابان نضجها ، خرج غالب وجابر من الثكنة العسكرية يتمشيان ناحية الكروم للترويح عن النفس ، والتمتع بامسيات القمر الرائعة .

وايقظت تلك الاجواء السحرية نشوة طرب وسرور في قلب غالب قادته للتشبب والانشاد بصوت رقيق وكأني بهِ يقول مع الشاعر شبلي الملاط :

روحي فدى جبل ما ابيض مفرقه
حتى جرى السفح واخضرّت مراعيهِ
غنته شبابة الراعي محاسنه
وسبّحت باسمه العالي سواقيهِ

وحسب لبنـان واديهِ الذي وقفت
عليـهِ روح (لامرتين) تنـاجيهِ

فقهقه جابر بصوت عال وقال : (ما شاء الله يا ابا الشام) حقاً ان ارضكم منبت الوحي والالهام . ويخال لي ان جمال بلادكم وروعة مناظرها يخلقان منكم شعراء (بالقوة) وقد صدق من قال : الشعر والالهام للبنانيين : والبداهة والنكتة للمصريين ...

واقول دون مواربة : انني هويت بلادكم ، فلو خيروني لقسمت قلبي شطرين بين بلادي وبلادكم . اما ذكرك اسم لامرتين فقد اغلق عليَّ ، ولا اذكر اني سمعته من قبل .

فابتسم غالب واجاب : شكراً يا غالب لحسن ظنكم باهل بلادنا ومحبتكم لوطننا فانا احيي فيك العـاطفة النبيلة والشعور الرقيق .

اما لامرتين الذي اغلق عليـك معرفة اسمه ، فهو رجل افرنسي ، عظيم الشأن من شعراء اوربا المشهورين ، ومن خيرة الساسة المحنكين . وقد زار لبنان سنة ١٨٣٢ اي من مضي ست سنوات . وتركت تلك الزيارة التـاريخية اثراً عظيماً في نفسه وفي نفس الامير بشير .

وصمت كلاهما عندمـا سمعا صوت طنين اجراس يرافقه صوت رخيم منشداً :

لما الرب في عينه رمقها عن روح الملايك ما فرقها
شال من القمر نتفة عجينة بشعاع الشمس تبلها وخفقها
" " " " " استخلص من شعاع الشمس طينه
وجبلهم في النعومة والسكينة وسحب من جعود الليل باقه
وساوى غرة جبينها وفرقها

كيف ربنا بصنع يدو وعطاها عنق مش موجود قدو
وكتاف عاميلتين الصدر شدو وعبيّ طاستين كوثر مقطر
وزين صدرها وشدد عزقها

ما بعرف شو هيدا بعينتيها سحرني وصار يجذبني اليها
صرت هلّل وكبّر بين يديها واشكر ربنا عاصنع يدو
حتى يضم يخلق عا نسقها

فالتفت جابر الى غالب والبسمة على شفتيه وقال : ما شاء الله . ما شاء الله : ما ارق هذا الوصف وما ابدعه : لعل صاحب الصوت الرخيم عائد من مهمته ؟

اجاب غالب : حقاً انه وصف بديع وانشاد رائع يبعثان البهجة في النفس ويدخلان الطرب الى القلب .

ووقفا صامتين يصغيان لكل مقطع من ابيات ذلك النشيد الجميل ، وتأبط غالب ذراع جابر وقال : هلمّ نجلس على تلك الصخرة الملساء قرب الغدير ، فنصغي لخرير الماء

ونشيد الينبوع الساحر . وهناك يطيب لي ان اقص عليك قصة سمعان الدير كما وعدتك .

فجلسا متحاذيين ، وقد انتشيا بروعة الاجواء السحرية ، وسماع انغام خرير الماء المسائية .

تنحنح غالب وقال : كان سمعان يتودد الى فتاة في قريتهِ (غريفه الشوف) طالباً الاقتران بها اسمها هدلا ويعلل نفسه بالامال باذلاً كل رخيص وغالٍ في سبيلها . وبادلته الفتاة حباً بحب ، وهي لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها ، بيضاء اللون ، شقراء الشعر تسطع في وجهها عينان زرقاوان فاتنتان وتتجلى فيهما خفة الروح .

وهام بها ابن عمها الذي لم تكن تحبه ، وتكره معاشرته رغم خطبتها له منذ ولادتها . وهذه الخطبة في الصغر عادة لا تزال متبعة في بلادنا لحفظ تقاليد بعض الاسر من حيث المركز والدين .

واعتزمت هدلا التخلص من ذلك الخطيب البغيض بجميع الوسائل . وزاد نفورها منه سوء خلقه ودمامة خلقتهِ وثقل ظله .

وقيل انه شاء مداعبتها ذات مساء ، فكمن لها وراء جدار بالقرب من دارها ينتظر عودتها من العين ، وكانت

تحمل جرة الماء على رأسها . ولما اقتربت الفتاة من الجدار تسير الهوينا . خرج شبح كان مختبئاً هناك ، وزعق زعقة مخيفة في وجهها اوقعت الرعب في قلبها ، فقلبت الجرة عن رأسها تتدحرج وتنكسر قطعاً قطعاً .

وساءت هدلا تلك الدعابة الثقيلة ، فنظرت اليه شزراً ولم تفه ببنت شفة . وتقدم الخطيب البليد يعتذر وقال : لا تغضبي يا ابنة العم . لم اقصد سوى امتحان شجاعتك ومقدرتك على احتمال المفاجئات .

وعاد مرة اخرى لمداعبتها ، فرماها بزهرة قرنفل فلم تلتفت اليه . فساءه عدم اهتمامها به .

فصعد الى سطح المنزل في اليوم الثاني يراقب مرورها الى (العين) وحمل سفرجلة كبيرة في يده ، فلما رآها تقترب من المنزل رماها بالسفرجلة ، فاصابت رأسها وسببت لها جرحاً بليغاً ، ولما سئل عن ذلك اجاب : اردت ان الفت نظرها الي فقط . هذا عدا عن سخافات وافرة تروى عنه .

اما سمعان ، فشاب ملء برديه العافية ، مديد القامة وسيم الطلعة رخيم الصوت ، وشيخ شباب القرية ، برفع الاثقال والاجران ، لان من تقاليد اهل القرى الموروثة انهم يضعون جرناً من الحجر الثقيل في ساحة القرية ، فاذا صدف ومرّت

عروس في طريقها الى قرية عريسها المجاورة ، لا يسمح بمرورها الا بشرط واحد وهو ان يقيم احد شباب قريتها المرافقين لها ذلك الجرن الثقيل . فاذا عجزوا فلا مناص من دفع ليرتين ذهب لشباب تلك القرية ويسمونها دفع العادة ، وطالما وقعت معارك دامية بسبب تلك العادة . واردف :

لكنّ حائلاً تقليدياً ابعد الشقة بين الحبيبين وجعل زواجهما مستحيلاً .

فقال جابر : ايكون الحائل جوهرياً بهذا المقدار ؟

اجاب غالب : لعله كذلك في عرف التقاليد الموروثة . واعلم يا جابر ان التقاليد تمثل دوراً هاماً في بلادنا . فالحبيبان اللذان لا ينتميان لطائفة واحدة ولا يعتنقان مذهباً واحداً يحرّم زواجهما تحريماً باتاً . وهذا هو الحائل دون زواج سمعان بهدلا . مع ان الكتب المنزلة تدعو الناس جميعاً للالفة والمحبة . ولست ادري الباعث على تحريم زواج الكاثوليكي بمارونية مثلاً وكليهما من اتباع المسيحية . ولذا اراني اصرّ على القول ان كل دين يدعو للكره والتباعد ليس منزلاً .

فقال جابر : يا للعجب ! هل يُحرّم الانسان ما حلّله الله وامر به ؟

اجاب غالب : لا تتعجب يا جابر من تحوير الانسان

لاوامر الله وتأويلها . فقد عصي الله الانسان الاول واورث التمرد والعصيان لاعقابه وذراريه . او تظن ان كل ما يجريه الادميون يرضي الله ؟ هدانا المولى الى كل ما هو حق وعادل .

وتابع حديثه وقال : وانتشرت الاشاعات يجتمها المغرضون ويروّجها المفسدون عن الحبيبين ، الى ان بلغت مسامع شقيقها فارس الشوفي . وهو شاب قصير القامة هزيل البنية ، عصبي المزاج ثائر ، فهددها بالقتل وحرّم عليها النظر الى سمعان .

وللتقادير اصبع في كل جريمة ومأساة . تمهد لارتكابها امور تافهة لا تستحق الذكر . وشاءت التقادير ان ترد هدلا على تحية سمعان وهي في طريقها الى المعبد ، وسرعان ما انتشر نبأ تلك التحية في القرية يضيف الراوي الى الخبر ما تصوّره مخيلته من تفاسير مجسمة ومبالغ فيها .

وللقرى مذيعون اختصاصيون ينشرون اذاعاتهم المغرضة بغية التفرقة واثارة النفور . يخفون نياتهم تحت ستار الطائفية البغيضة والحزبية الذميمة .

وابتدأ الفصل الاول من تلك المأساة المروعة ، عندما

اضمر فارس الشر لشقيقته والغدر بها . فدعاها لتصحبه الى كروم لهم تقع على مرتفعات القرية . فلبت الدعوة صاغرة وقلبها يحدثها بالويل وسوء المصير . وسارت الى جانبه ، وجلة ساهية . اما هو فتحيّن فرصة غفلتها ودفعها بعنف وقسوة بربرية الى الهوة السحيقة وصاح بها : ليكن الجحيم مثواكِ ايتها المتمردة ، ولتشرب الارض دمك النجس ولتشبع طيور السماء من لحمك الرجس . كوني عبرة لكل متمردة ، وعظة بليغة لكل خارجة على تقاليد وطقوس ذويها . هذا جزاء الخائنات .

فسقطت المسكينة سقطة مروّعة ولم يسمع لها صوت . واطلق الجاني ساقيهِ للريح وامعن في الهرب فاراً من وجه العدالة .

وعجز ذووها مع رجال الحكومة عن وجود جثتها ، وما اهتدوا الى علّة اختفائها . وخفي عليهم معرفة الجاني .

واختلفت اقاويل العجائز في سرد الرواية . فالبعض نسب ضياع الفتاة ، لملك الجن ، زاعمين انه اختطفها لهيامه بجمالها النادر والبعض الاخر اكدّ بان الارض انشقت وابتلعتها لتمردها وخروجها على تقاليد ابائها . والا لما اختفت جثتها .

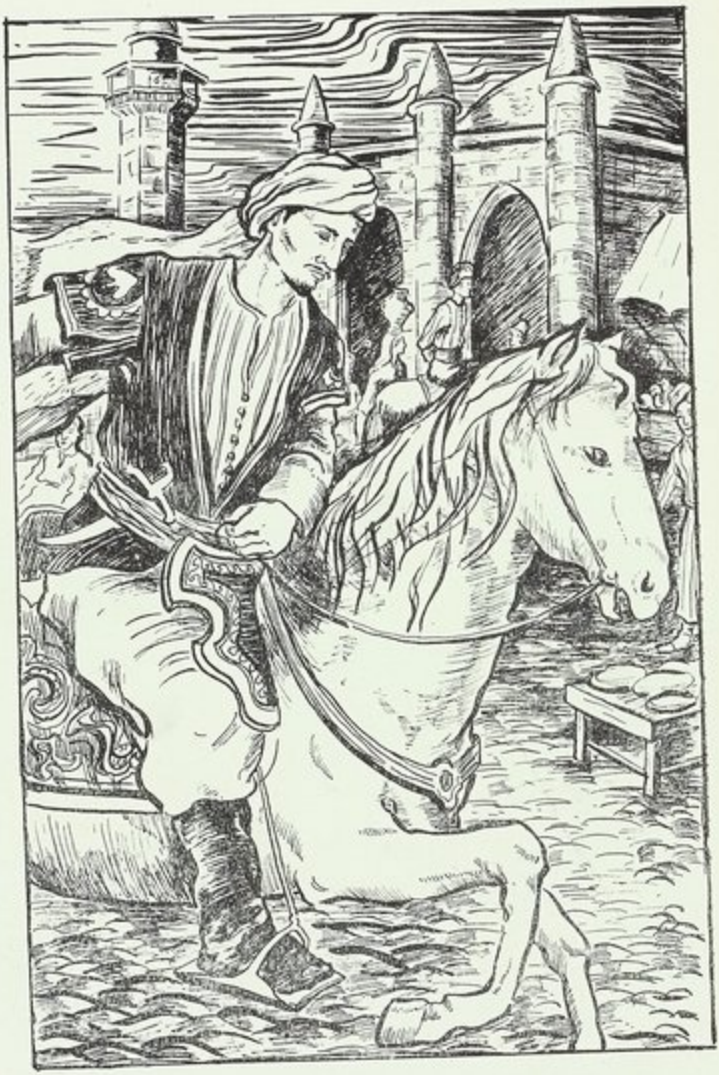

جابر الحلواني – ضابط مصري

ودام حديث هدلا وسمعان عدة اشهر تتناقله الصبايا عن العجائز ويفسرّه كل فريق على هواه . ومما زاد الطين بلّة اجتناب اهل القرية المرور بالقرب من ذلك الوادي ، واطلق عليه اسم وادي الجن ، ولم يجسر احد على المرور بقربه خوفاً من الجنيات التي تسكنه كما يعتقدون .

وسأل جابر : وماذا جرى لسمعان المسكين والصفعة شديدة مؤلمة ؟! اجاب غالب : مسكين سمعان ! لقد اتهموه باختفائها فاقتادوه الى السجن حيث قاسى عذاباً اليماً واحتمل ضرباً مبرحاً ، ولما لم تثبت الادلة لادانته اطلق سراحه بعد ان سُجن سنة واكثر ظلماً وزوراً . فهجر القرية وعاف السكن فيها ، واخيراً اعتزم التجول بين القرى يجمع النذورات للاديار التي تكثر في ديارنا باحثاً عن السلوى والسلوان في الذهاب والاياب ، آملاً بالوقوف على اثر الحبيبة التي اختفت بين طيات المجهول .

* * *

وراجت اشاعة في الاونة الاخيرة مؤداها : ان الفتاة الحسناء هدلا حية ترزق ، تقيم في احد الاديار تنتظر الفرج ، وزعموا ايضاً ان سمعان قد اهتدى الى المكان الذي توارت فيه حبيبته ، في تنقلاته بين تلك الاديار

فاصبح يناجيها ويتغزل بها في رحلاتهِ وغدواتهِ ، ويخفف بالانشاد نار هيامهِ ولظى غرامهِ والله اعلم ...

فقال جابر : يا للجريمة الوحشية والجناية البربرية ! ويالله ما اقسى قلب الانسان ! وما ابعد الرحمة عن فؤاده ! وما اقدره على الوقوف موقف الثبات والصبر امام مشاهد الظلم والغدر !

ولماذا يحرّف المتنفذون ورجال السلطة شريعة الخالق ؟ وهو الآمر بتكوين الاسرة كما جاء في جميع كتبه المنزلة . فمن أي كتاب استقوا تحديد وتحريم الزواج بين طائفة واخرى . اليس من العار ان يتخذوا من سلطتهم سلاحاً قاطعاً للتفرقة بين قلبين شريفين حبيبين يعتقدان برب واحد وكتاب واحد ؟ فما اعظم جريمة الامة التي لا يموت فيها غدراً غير شرفائها واعفائها !

وما عتم ان سمعا صوت النفير يعلن موعد العودة الى الثكنة ، فسارا مسرعين كلّ يفكرّ بمشاكل الحياة المتعددة .

الفصل السابع

●

دير السبع بنات

عادت ام غالب الى وعيها بعد ان سقطت واغمي عليها من شدة الاعياء اثر فرارها بوحيدها غالب . وكانت تجتنب سلوك السابلة خوفاً من الوشاة الذين يكثر امثالهم ابان الثورات والحروب في مختلف العصور . ويعزون ذلك لتدهور الاخلاق ، وانحطاط القيم الروحية والمعنوية .

وكان الليل قد ارخى سدوله فخرجت الوحوش والضواري من اوكارها واوجارها . تسعى وراء فريسة تملأ بها جوفها .

ونهضت ام غالب متباطئة تتلفت ذات اليمين وذات اليسار ، تجمع شتات افكارها ، وتساءلت في نفسها : اين انا ؟

وجنّ جنونها عندما افتقدت ابنها ولم تجده ، فوقفت تناديه بصوت مرتجف ... وتدعوه بأرق العبارات والالفاظ ... ودبّ الرعب في قلبها عندما سمعت عواء الذئاب ووطء اقدام الضباع تقترب منها ، فتشددت .

واخذت تستنجد وتنـادي ، لكنها لم تسمع سوى صدى صوتها تردده الاودية ، ويعيده اليهـا سكون المكان ، واختنق صوتها ولصق لسانها بحلقها ، من كثرة النداء .

فوقفت تتنفس وتصيخ سمعها لكل حركة . فسمعت وطء اقدام تقترب منها ، عقبتها صرخة داوية ارتجت لهولها الاودية وهلع منها قلب ام غالب المسكينة . ولم تكن تلك سوى صرخة ذئب مفترس اخذ يتنسم ريحها ، فاسرع الخطى ناحية فريستهِ .

* * *

ويتغلب على الانسان حب البقاء مهما قست عليه النائبات وتنكرت له الحيـاة . فاسرعت ام غالب تفكر بطريقة تتخلص بها من براثن ذلك الذئب المفترس . فلاحت لهـا شجرة مرتفعة على مقربة منها . فهرولت اليها تتسلقها والرعب آخذ منها كل مأخذ . وسلمت من الوقوع غنيمة باردة لذلك الوحش الضاري . وجثم الذئب ينتظر سقوط فريستـه الى الارض ، فكان يصرخ الصرخة تلو الصرخة ويهجم على ساق الشجرة بغية تسلقها ، ويرتـد خائباً لعدم مقدرته على ذلك .

وبعد هنيهة سمعت ام غالب ثغـاء خروف يقترب منها كان قد ضلّ عن القطيع ، فارهف الذئب اذنيه ونهض

مسرعاً تاركاً حراسة ام غالب واقتفى اثر الخروف .
وسمعت ام غالب همهمة الذئب وصوت سحق عظام فريسته .
فرفعت عينيها الى السماء تشكر الله على نجاتها من تلك الميتة المروّعة وتضرع اليه ان يخلّص ولدها كما خلصها .

ولاقت ام غالب في تلك الليلة المشؤومة آلاماً ونكبات امرّ من العلقم .

وارسلت الشمس اشعتها الذهبية على تلك الانحاء التي شاهدت مأساة من افظع المآسي البشرية . اسندت اهم ادوارها لامرأة فاضلة وطفل بريء .

وعادت ام غالب تفتش عن ولدها ، تناديه بأرق العبارات وتبكيه بأسخى العبرات . فلم تجده وعجزت عن الاهتداء الى اثاره ، فثبت لديها ان وحشاً افترسه ، وغدا غنيمة باردة في جوفه .

ورددت الاودية والاكام صدى نواحها ونحيبها . ورثته بكلمات تمزّق القلوب وتفطّر الاحشاء .

وخشيت ان تضطر للمبيت ليلة اخرى تحت رحمة الوحوش الضارية . فجثت تتذلل وتضرع الى الله كي يفرج كربها ويهديها الى ملجأ آمن قبل حلول الظلام .

سارت ام غالب منحنية الظهر ، تتمتم طلبات وصلوات وهي تقرع صدرهـا واذا بصوت ناقوس تسمعه من احد المرتفعات ، فثبت لها وجود دير هناك في تلك النـاحية تتمكن من الوصول اليه قبل المغيب . فاتجهت ناحية الصوت تسرع الخطى .

• • •

فتحت الاخت شهيده باب الدير الذي دعي باسم دير السبع بنـات . وسمي كذلك لان راهباته لا يزدن ولا ينقصن عن السبع . وكانت في طريقها الى نبع ماء قريب تحمل جرة عـلى كتفها لتملأها وتعود بها حسب عادتها كل مساء . ولشد ما كانت دهشتها عندمـا رأت امرأة صفراء الوجه نحيلة الجسم ترقد بالقرب من الباب .

فاقتربت منها تناديها وتهزها فلم تجب المرأة ولم تأت بحركة . فعادت على اعقابها وانبأت اخواتها بالامر . فأسرع ثلاث منهن يحملن الماء وبعض المنعشات اليها .

لكنَّ المرأة المسكينة بقيت هادئـة هدوء الموت . فحملنها الى داخل الدير ، وجعلن يعالجنها بماء الزهر وينشقنها قطعة قماش زرقاء حرقنها كي تستفيق . وتولت احداهن دلك

يديها وثانية فرك تدميها . فافاقت المرأة اثر ذلك العلاج ، لكنها لم تقوَ على النهوض ولا على الكلام . فقدمن لها فراشاً وغطاء ووفرن لها اسباب الراحة والهدوء .

وبقيت تلك المرأة المعية تئن انيناً يفتت الاكباد ثلاث ساعات متوالية . وعندما فتحت عينيها الذابلتين اجهشت بالبكاء وعاودت النحيب . وقامت الاخوات الى المعبد الصغير لتأدية فروضهن الدينية . وبقيت الاخت شهيده الى جانبها ، تراقب حالتها وترثي لمصيبتها المجهولة . ولم تكن تلك المرأة سوى ام غالب .

استمرّت ام غالب اياماً مطرقة الى الارض تجللها الكآبة ويقصم ظهرها الحزن . لان النكبة كانت فوق طاقتها . فناءت بحملها ، وصرعتها النوائب صرعاً مخيفاً . وتحاشت الاخوات نكأ جراح قلبها ، فلم يسألنها عن امرها شيئاً ولا عن سبب حزنها ، وطالما قضين الوقت بالصلاة معها ولاجلها . وكم تضرعن الى الله كي يخفف عنها وعنهن آلام هذا العالم الشرير .

وتسرّب العزاء رويداً رويداً الى قلب ام غالب ، لأن قضاء وقتها بالصلاة والتعبد اعادا الهدوء الى قلبها والسكينة الى نفسها .

واندمجت في سلك الاخوات الراهبات وارتدت لباسهن واصبحت كواحدة منهن ، وقبلنها في عدادهن بالرغم من ضيق الدير ومن صرامة قانونهِ . وكتمت ام غالب سرها في قلبها ولم تبح بكلمة من مأساتها ، لانها خشيت ان يرفضن قبولها اذا علمن بامرها . وقانون الدير يبيح دخول العذارى فقط . وعرفت ام غالب بينهن باسم الاخت (مرثا) .

الفصل الثامن

●

سعديه خانم

فتاة في مقتبل العمر بارعة الجمال ، معتدلة القوام ، يتوج رأسها شعر ذهبي جميل وتنبعث من عينيها الزرقاوين فتنة ساحرة واغراء لا يقاوم . غير انها كانت شديدة الغيرة ، سريعة النقمة . وهي كردية الاصل ، جاءت من استنبول بمعية الست حسن جهان خطيبة الامير بشير . لان الامير كان قد جزم ان لا يتزوج بفتاة من لبنان كيلا يكون لاهل الزوجة سبيل للتدخل في امور الحكم .

فكانت سعدية جاريتها المفضلة ، ومستودعاً لاخبارها وكاتمة لاسرارها . وكثيراً ما تحدّث اهل قصر بيت الدين وسكان دير القمر عن جمال سعديه ورفعة مكانتها في القصر الشهابي ، بالرغم انه لم يرها منهم الا القليلون .

وكان من بين الذين اتيح لهم رؤيتها والتحدث اليها الضابط غالب العرباني – رئيس حرس الامير بشير . فمالت اليه سعديه وهامت به هياماً شديداً حرمها الهناء وعكر عليها الصفاء .

وازدادت تعلقاً بهِ اثر فوزه الباهر في ميدان السباق ، واعجاب جمهور المتفرجين بما ابداه من جرأة وبطولة . فعلقت آمالها على حبه ، واعتزمت استمالته اليها بجميع وسائل الاغراء .

وتجاهل غالب كل ما كانت تبديه نحوه من نظرات غرامية واشارات حبية ، ضارباً بكل ذلك عرض الحائط . لان حب لمياء كان قد تمكن في قلبهِ فأعرض عن الاهتمام بأية حسناء سواها .

وما كانت الحسناء سعديه لترضى بتلك الهزيمة النكراء ، وهي هي المقربة من ارباب النفوذ واصحاب السلطة . فاخذت تتجسس اخباره وتراقب حركاته وسكناته لعلها تقف على سبب جفائهِ واعراضهِ . وللنساء ارادة قوية لا تقهر في مثل هذه المواقف .

* * *

وهبّت نيران الغيرة تتقد في احشائها واصبحت تتقلب كأنها على قطع الجمر عندما علمت بميله الى لمياء وهيامه بها . فاضطرمت في نفسها عوامل النقمة وصممت على الانتقام منهما والحيلولة دون سعادتهما . واخذت تعد العدة لذلك وتضع الخطط لتنفيذ مآربها .

توطدت اواصر الصداقة بين سعديه خانم والشاب قسطه الرومي اثر كارثة اصابتها وكادت تودي بحياتها ، لولا مجازفة قسطه بنفسه وذلك عندما لسعتها افعى سامة في كرم مجاور للقصر ، فهب قسطه لنجدتها واخذ يمتص مكان اللسعة ويبصقه الى ان زال خطر التسمم عنها .

فحفظت له تلك المنة وقدّرت تلك المجازفة الخطرة لأن لا شيء اثمن من الحياة على قلب الانسان . فكانت تتحفه بالهدايا الثمينة وتخصه بكثير مما تناله من اجر ومتاع .

وقسطه صاروفيم الملقب بالرومي ، رجل يوناني الاصل من جزيرة كورفو في بلاد اليونان . فرّ مع ذويه من بلاده لاسباب سياسية ينتحون جهة فلسطين ثم عادوا واستوطنوا سوريا عدة سنوات الى ان افتتحها ابرهيم باشا القائد المصري .

وكان لقسطه اليد الطولى في ايصال المعلومات الخطيرة التي تهم الفاتح المصري وتسهل امامه احتلال البلاد ، بجانب ما اظهره من حسن السياسة بين المصريين والاهلين .

فاعجب الباشا بدهائه وراقه حسن اسلوبه فقرّبه اليه واصبح نافذ الكلمة لدى القائد المصري لا يرد له طلباً .

وقسطه شاب ربع القامة عريض المنكبين ، كثيف الشاربين ، غليظ الرقبة سريع الغضب ، حاد النظر صلب

الارادة . يتخطى الصعاب ويذلل العقبات بجرأة نادرة ومهارة فائقة اشتهر بها . فلا يعوقه عائق ولا يحول في سبيله حائل دون الوصول الى بغيتهِ ، ونيل امنيتهِ .

وكان في عداد المدعوّين لحضور حفلة السباق التي اقامها الامير خليل وقد مرّ ذكرها . وسرعان ما لفتت نظره لمياء الديراني وهي تتقدم صفوف المدعوين الى جانب والدها . فجعل يتتبعها بنظراته ، وقد سحره جمالها وفتنته محاسنها . وتمنى لو كان في عداد المتسابقين ، ليظهر امامها بطولته ورجولته . واستعرت في قلبه نيران الحسد عندما رآها تضع اكليل النصر على رأس غالب العرباني . وجاشت في نفسهِ افكار وهواجس شتى ، وخشي ان يكون فوز الضابط الشاب قد وقع في نفس لمياء موقعاً حسناً . وتحققت هواجسه عندما لمح اضطراب لمياء واحمرار وجهها اثر انتهاء الحفلة . فاعتزم ان يكون السبّاق بطلب يد لمياء وقرّر ان يتوسط ابرهيم باشا بذلك فيطلبها له من الامير بشير – صديق والدها المقرّب . وكثيراً ما ساوره القلق وانتابته الهواجس من جراء النصر الذي احرزه غالب . فكان يحدّث نفسه ويقول : انني اخشى من تعلّق الفتاة بهِ ، والفتيات تغرهنّ القوة والبطولة .

ثم يتراجع عن ظنونه ويقول : يستحيل ان تتعلق فتاة كلمياء لها مكانة رفيعة وجمال رائع بجانب الجاه والثروة بضابط وضيع يروى عنه انه لقيط شريد لا حسب له ولا نسب . لكنني سأعرقل كل خطوة تقرّب احدهما من الآخر . والاسراع في الطلب خير وسيلة للنجاح والتوفيق . فالاوفق ان اعرض امري للباشا والتمس منه ان يوسط الامير الكبير بالامر . ومتى علمت بمكانة الذي يطلب يدها ومنزلة وسيطه تزول من ذاكرتها ذكريات تلك الخفلة المشؤومة .

وعلّل نفسه بالامال ، يحلم الاحلام الذهبية ويتخيّل السعادة المرجوّة بزواجه العتيد ممن احبها وملكت شغاف قلبه . واستمرت تتجاذبه الافكار لا يقرّ له قرار ولا يهدأ له بال . وسار يهيم على وجهه لا يدري الى اي جهة يقصد . فجلس على رابية تطل على قصر الامير بشير وتبعد عنه نحو ربع ساعة من الزمن .

وما ان استقر به المقام حتى جاءه غلام من غلمان قصر الامير بشير يدعوه لمقابلة سعديه خانم . وكانت سعديه قد استأذنت مولاتها الست حسن جهان لمقابلة قسطه الرومي ، فأذنت لها .

وعاد الغلام وقال : ان قسطه بالباب . فقالت : ليدخل . وابتسمت له وقد القت النقاب على رأسها واشارت الى مقعد يجلس عليهِ وهو يتأدب في نظراتهِ . وهذه عادة متبعة في الشرق . وضرب المثل بها فقيل : اكرم العبد اكراماً لسيده .

* * *

وكثيراً ما كان للجواري والوصيفات نفوذ ويد في تسيير امور الدولة واعلاء شأن من يرغبن في اعلائه في تلك العصور الى يومنا هذا .

والتفتت اليه وهي تتصنع الدلال وقالت : اتعلم يا قسطه لماذا دعوتك ؟

قال : لا يا سيدتي ! انما اعلم ان علي مولاتي الامر وعليَّ الطاعة . فعبدك قسطه ليث في ساحة الوغى ، وحمل وديع في مجلس الجنس اللطيف . وكيف اتوانى عن تلبية اوامركِ وانت تحتلين منصباً رفيعاً في هذا القصر . . . !

فابتسمت تبدي الحياء وتتظاهر بالخجل والتواضع وقالت : خلِّ عنك المجاملة وكثرة الثناء يا قسطه . فالامر الذي دعوتك لاجلهِ هام جداً وعلى جانب عظيم من الخطورة .

واستوت في مجلسها تظاهر الجد والرصانة واردفت قائلة : انت تعلم ما يحيط بنا من الحساد وما يهددنا به الاعداء في هذه الاونة العصيبة من الاضطهاد ودس الدسائس . فالولاة العثمانيون لا ينامون عن مناوأة ابرهيم باشا ، بجانب ما يبديه اللبنانيون من النفور واثارة الخواطر عليه . وبالاخص على جيشه الباسل .

وغالى المغرضون في التحامل على القائد المصري وهو العزيز على قلبينا ويهمنا فوزه على الاعداء وانتصاره على المشاغبين .

واعلم بانني قد استقيت بعض المعلومات الخطيرة من مصدر يوثق به ، نقلها اليَّ حاجب مصري كان يستمع الى جدل وحوار أثيرا في مجلس الامير بشير يوم امس . ودار الجدل حول استبداد المصريين باهل القرى بسبب جباية الضرائب .

وكان اكثر الجميع تحمساً الشيخ منصور الديراني الذي اخذ يجسم هياج الشعب اللبناني في عيني الامير بشير ، ويبالغ في الشكوى على الجند المصري ، ويصوره باقبح الصور الوحشية . وادخل في ذهن الامير قرب اشتعال نيران الثورة واعلان التمرد والعصيان على الحكومة .

اجاب قسطه : يتضح لي مما ذكرت انكِ تريدين ان ابلغ خبر ذلك لابرهيم باشا وهذا امر هيّن سهل . اؤديه بكل طيبة خاطر .

قالت : ليس له لكن لاحد قواده المخلصين .

وكان جلّ اهتمامها في بعث تلك الرسالة تحريض قسطه والجند المصري على الشيخ منصور الديراني والد لمياء . فيؤدي الاتهام الى نفيه او قتله فتتخلص منه ومن ابنته لمياء مزاحمتها على قلب الضابط غالب العرباني .

ووقفت تظهر الحماسة وفي عينيها تلمع شرارات النقمة والحقد . وقالت : اعلم يا قسطه ان الامر اخطر مما تظن وادق مما تفكر . فكن رجلًا مثل عهدي بك ، وثق ان نجاحك في هذه المهمة ضامن لوصولك الى الرتب الرفيعة ، وتكون قد ادّيت لصاحب مصر جميلًا لا ينساه . ثم مدّت يدها الى جيبها واخرجت ورقة ملفوفة وقالت : اليك هذه الرسالة فهل تعاهدني على ايصالها لصاحبها باسرع ما يمكن ؟

اجاب قسطه : اني رهين الاشارة يا سيدتي . وانحنى مسلماً . . .

فابتسمت له وقالت : الى اللقاء . . . سر على بركات الله . وعادت الى داخل القصر وقلبها يرقص طرباً لنجاح

خطتها وتنفيذ مآربها . وقضت ليلة هانئة تحلم بالمستقبل السعيد ، وبانتصارها المنتظر على الاعداء .

وثارت في نفس قسطه عوامل الفضول وتنازعته الافكار والوساوس بسبب تعرض سعديه للحط من سمعة الشيخ منصور وانصرافها الى لومه وتشهيره . ولم تخفَ عليه كلمات التحريض التي شاءت ان تبعثها في نفسه . وساءه منها ذلك التحريض الذي لم يعلم له سبباً .

فعوّل على فض الرسالة ليعرف مضمونها ، لعله بذلك يستدل على الدافع لذلك التحريض والباعث على ذلك الكره والحقد . ففض الرسالة وقرأ فيها ما يلي :

* * *

اخي رفعت

يسؤني ان اخبرك باضطراب الحالة السياسية في لبنان ، فسماؤه ملبّدة بغيوم الحذر والقلق ، ويخشى اشتعال نار الثورة قريباً . يحرض على امتدادها رجل يدعى الشيخ منصور الديراني فهو النافخ في نارها والباعث على تطاير لظاها وشرارها . والرجل المذكور ذئب في ثوب حمل ، يدّعي

الصداقة والمودة للامير بشير – حليف عزيز مصر المفدى .
فاعملوا جهد طاقتكم للتخلص منه والقضاء عليه .

وحاولوا بما لكم من مكانة ونفوذ لنفيه او قتله ، فتأمنوا غدره وشره . واحذركم من الخونة امثاله . وخير علاج لتهدئة الحال واستتاب الامن اعدام الرجل ومحو اسمه من سفر الوجود والسلام ...

سعديه

ولشد ما كانت دهشته عندما اتم قراءة الرسالة وازدادت حيرته لانه لم يستدل على الدافع لذلك التحريض الهائل والباعث على ذلك الكره المخيف . وقال لنفسه : ساعلم الباعث على ذلك عاجلًا ام آجلًا . واتلف الرسالة بعد ان مزّقها قطعاً قطعاً .

الفصل التاسع

●

قاعة العمود

هي قاعة مربعة الشكل . فرشت بالسجاد الفاخر والطنافس النادرة . ونقش على جدرانها نقوش جميلة مذهبة ورسوم منوّعة ملوّنة ، من ازاهير ونباتات ، وايات كتابية وامثال حكمية وكثير من الابيات الشعرية ، واتقن صنع جميع هذه الزينات بشكل جذاب رائع .

فعلى الحائط المقابل لمدخل القاعة كتبت آية كريمة وهي :

« رأس الحكمة مخافة الله »

وعلى الجدار المقابل له كتب ما يلي :

حمد الاله من الولاة وشكره ان ينصفوا بين الانام ويعدلوا
فهم الذين على العباد تأمنوا ان الامين عن الامانة يسأل

●

واقيمت على جانبي القاعة مقاعد من الرخام الايطالي الجميل ، تعلوها واجهتان من الزجاج الملوّن البديع . هذا بجانب الحفر المذهب ، والنقش البديع اللذين زينت بهما

الابواب والجدران . وجميع هذه من مفاخر الصناعة اللبنانية . وخصّص الامير بشير تلك القاعة الفسيحة باستقبال اخصائه ورؤساء ديوانه .

وفي اليوم الخامس لقدوم الضابط جابر الحلواني رسول ابرهيم باشا استدعى الامير بشير صديقه المقرّب الشيخ منصور الديراني ، والمعلم بطرس كرامه وانضم اليهما الشاعر نقولا الترك والشيخ ناصيف اليازجي . ولما استتب بهم المقام طلب الامير من الشيخ ناصيف ان يقرأ الرسالة على مسمع الحضور .

وبعد ان اتم قراءتها التفت الامير الى الشيخ منصور يستطلع رأيه ... فأستوى الشيخ منصور في مجلسه وكان يُقلّب سبحة ثمينة لا تفارقه الا عند النوم .

●

وتنهّد طويلًا ثم قال : يعزّ علينا ايها الامير وعلى كل لبناني مخلص لكم ولوطنه ان يخالف مشيئة الامير ويتنصل من التعاون مع حليفكم المصري ضد مثيري الفتن ومروّجي المشاغبات .

كما يعزّ علينا استبداد الجيش المصري بالشعب اللبناني الابي . ولا اكتمك بان النقمة عليهم تشتد بين الخاصة والعامة ، بجاسة ونفور مرير . وقد اشرت لكم عن هذه الحالة في جلسة سبقت واوضحت فيها سوء العاقبة والمصير .

والتمس ان يأذن الامير لي في نقل ما سمعته بأذني ورأيته بعيني من وفد جاء من القرى المجاورة ليعرض شكواه على سعادتكم .

اجاب الامير : قل ايها الصديق ولا تخفِ عنا شيئاً مما يجب علينا معرفته والاطلاع عليه .

فقال الشيخ : سمعت البارحة جلبة وغوغاء امام القصر . فتطلعت من النافذة لارى ما الخبر . واذا بي اطلّ على جمع من الشيوخ والنساء يحملون اطفالهم معهم .

واذا بامرأة تصيح من بينهم وكانت تحمل طفلاً رضيعاً على يدها وقالت : استجير بك من الظالمين الطغاة يا ابن الوطن : لقد دخل الجند المصري دارنا يوم امس فذبحوا الدجاج ، ونحروا الماعز وعددها عشرة لا غير لا املك سواها كنت استعين بها على اعالة اطفالي اليتامى .

ولم يردعهم ضميرهم عن سلب مال الايتام ولم يصغوا لدموعي وتوسلاتي وانتهرني رئيسهم بعد ان اشبعني سباً وشتماً وقال : لا بد من تأدية الضريبة للحكومة والذي يعجز عن دفع المال يجب ان يؤدي قيمة الضريبة مما يملك . وانصرفوا من عندي ليحتلوا دار اختي . فرفعت صوتها ترجوهم الرفق باطفالها القاصرين .

فصمّوا اذانهم وقسوا قلوبهم . وفرضوا عليها ضريبة لا طاقة لها على ادائها . ويا لهول ما ارتكبوه عندما عجزت عن دفع المطلوب . ولم يتورعوا عن الاستيلاء على كمية ضئيلة من الحبوب كانت تحتفظ بها مؤونة لصغارها . وقدموها علفاً لخيلهم ولم يشفقوا على صراخ اطفالها ولا الى توسلاتها وبكائها كأن قلوبهم قدّت من الصخر .

واستمروا على تلك الحال ينتقلون من دار الى اخرى يجبون الضرائب ، ويسوقون الرجال للسخرة ولاخراج الفحم والحجر من المقالع البعيدة . وكانت الحكومة الغاشمة تمتهن كرامة كل رجل تعذّر عليه تأدية الضريبة وتسيمه مرّ العذاب .

وتقدم بعدها رجل مسنّ ودموعه تنحدر كالمطر من عينيه الكليلتين وقال : كنت نائماً في فراشي يا سيدي،

لشدة ما الاقيه من آلام العجز والشيخوخة . فافقت على صوت الجند المصري يقتحمون الدار ورئيسهم يحمل سوطاً من الجلد بيده . فاقترب مني ونزع الغطاء عني بقسوة بربرية وقال : انهض ايها الرجل الهرم المخبول .. واسرع بتأدية ما عليك من ضريبة للحكومة وقدرها ٢٠٠ غرش تدفعها نقداً ... فاجبته : انني رجل عاجز لا املك شروى نقير ، اعيش على صدقات المحسنين فمن اين لي هذه القيمة ؟!

ولم اكد اتم قولي حتى اخذ سوطه يمزق جلدي . وكشف عن جسده وارانى آثار الضرب ومياسم السياط .

واردف المسكين : ثم حمل الجند فراشي وهو كل ما املك واوقف ذلك الطاغي جواده على الفراش امام ناظريّ وقال : جوادي احق منك بهذا الفراش فهو يخدم الحكومة وينفعها ...

ثم اشعل الشيخ منصور شبقه وقال : ويعوزني الوقت ايها الامير اذا اردت تعداد الاراجيف التي سردها على سمعي ذلك الوفد .

فهل بالامكان تهدئة الخواطر وقمع الثورة بعد هذا العرض الرهيب .

واعلم ايها الامير : اذا لم يبدّل المصريون خطتهم ويعدلوا عن عسفهم واستبدادهم فالثورة ناشبة قريباً . فمن الحكمة استدراك الشر قبل وقوعه .

●

فاصغى الامير صامتاً . وكان يحترم رأي الشيخ منصور ويقدّر بعد نظره لا سيما في ما يتعلق بالمشاكل السياسية . وتزحزح في مجلسه وقد بدت دلائل الاهتمام على وجهه وقال : يعلم الله ايها الصديق ان تحالفنا مع المصريين كان لامنية واحدة وهي دفع التعدي عن لبنان من قبل الدولة العثمانية لانني لم اجد اقوى من محمد علي باشا معيناً لنا عليها . وقد حالفته مضطراً بعد ان خابرت الافرنسيين وعلمت ما علمت من شواغلهم الداخلية التي لا تمكنهم من مساعدتنا . ومثلهم بقية دول اوربا .

فهل أُلامُ وقد اخترت اهون الويلين ؟ كما انني لم اغفل من تحذير الباشا الى التخفيف من جباية الضرائب الثقيلة وتنكب اعمال السخرة . فاقنعني بقوله انما يضطر الى ذلك كي يبقى مستعداً للحرب متهيئاً لها . وادّى هذا بطبيعة الحال الى بناء الحصون واصلاح الطرقات التي يعوزها المال واليد العاملة .

فالتفت المعلم بطرس كرامه الى الامير وقال : كانت

الناس قبلًا تتحدث عن شجاعة محمد علي باشا وبطولة ابنه ابرهيم باشا غير ان الفرق بينهما ان والدهُ كان ارقّ جانباً وامرن سياسة . فمحبة الناس لابيه كانت مقرونه بالاحترام ، اما محبتهم لابنه فمقرونة بالخوف وشتان بين هذه وتلك .

واضاف المعلم نقولا الترك قائلًا : ارى يا مولاي ان نطلع ابرهيم باشا على جلية الامر وخطورة الموقف . ونفهمه ما آلت اليه الحالة من الاشتداد والتوتر بعدما سمعنا من اخبار سيئة وعرض مؤسف .

وانفض المجلس ولم يعلم احد بما جاء في رد الامير على رسالة ابرهيم باشا سوى الشيخ ناصيف اليازجي — رئيس كتبة ديوانه فهو الذي اطلّع على افكار الامير وكتب ذلك الرد .

واستدعى الامير بشير الضابط جابر الحلواني وسلمه الجواب لابرهيم باشا . فحمل الرسالة وعاد مسرعاً ....

الفصل العاشر

•

وردة الترك

انتابت الشيخ منصور الديراني وعكة صحية فجائية لم ينجح فيها دواء ، ولا عناية الطبيب الشهم فرنسيس الحاصباني – جد عائلة فرنسيس في القليعة مرجعيون اليوم – طبيب الامير بشير .

واشتدت عليه الالام المبرحة ابان اشتداد الثورة ضد المصريين التي ذهب ضحيتها نخبة من رجال لبنان وابطالها الميامين . وذلك حين اندفعوا للدفاع عن استقلال بلادهم والذود عن كرامتهم .

ويخال لمن يتتبع حوادث الدهر القاسية انها لا تأتي فرادى بل تجيء سلسلة محكمة العقد شديدة الوطأة .

* * *

وما انتشر خبر مرض الشيخ حتى اخذت داره تغص بالعوّاد والاصدقاء ، يخففون عنه آلام المرض ، وعن ابنته لمياء خوفها على حياة ابيها بمؤاساتهم ومؤانستهم .

ولم تتخلف وردة الترك عن عيادة الشيخ منصور والترفيه عن ابنته صديقتها وتلميذتها .

فاستقبلتها لمياء وفي عينيها دموع الاسى وعلى وجهها دلائل الحزن واللوعة . واسرعت وردة تقبلها وتطيب خاطرها وتهوّن عليها لهفتها بحسن اسلوبها وطلاقة لسانها . بعد ان علمت ان سبب مرض والدها الفجائي الذي انتابه كان عن انفعال نفساني سببه جدل عنيف جرى بينه وبين الامير بشير اثر التطورات السياسية .

فقالت وردة : تبًّا للسياسة الخرقاء . فهي مجلبة للمحن والمصائب تتوالى علينا من الداخل والخارج ، ومن الولاء للحلفاء . هوّني عليكِ يا عزيزتي واصبري على حكم الله كما صبرتُ : فان الله مع الصابرين اذا صبروا . ألم ينكب بيتنا باعز من فيه ؟ ولا اغالي اذا قلت ان النظر اغلى شيء على قلب الانسان .

ألم يفقد والدي بصره اثر عودته من مصر يوم ارسله الامير بشير بمهمة سياسية لجس نبض الافرنسيين ومعرفة مدى استعدادهم لنصرة ابرهيم باشا حليف الامير على الدولة العثمانية .

فعاد ويا للأسف يحمل الرمد الصديدي المصري في عينيه . ووعوداً لم تنجز ومن ثم اصبح جبلنا ضحية الوعود ومطية الطامعين . فوالدك ووالدي في عداد ضحايا المحالفات والمعاهدات الاثيمة .

* * *

وصمتت وردة تتأمل الكآبة المرتسمة على محيا لمياء واسفت لمصابها فتركت مجلسها واقتربت منها ثم احاطت عنقها بذراعيها واخذت تقبلها وتمسح دموعها .

ثم قالت : ما لنا وللسياسة الغاشمة يا عزيزتي . ونحن لسنا من اربابها ووالدك معافى باذن الله . انبذي الغم والهم جانباً . ولنتحدث عن امر مستقبلك . اصدقيني القول يا لمياء . ألا تزالين مصرّة على الذهاب الى الدير والاعتكاف بهِ ؟

اجابت لمياء : هذه امنيتي منذ عرفت الشر من الخير لكن والدي يأبى عليّ تلك الامنية لانني وحيدته ووارثة اسمه وثروته . ومما يحزّ في نفسي كثرة طلابي في الاونة الاخيرة . وجلهم يتودد الى والدي رغبة في الوصول الى امنيتهم والتمتع بتلك الثروة فقط .

ولم اكن ادري ان والدي يكتم سراً عني ووعداً قطعه لامي يتعلق بمستقبلي . اخذته عليه وهي تحتضر . وعرفت ذلك منذ اسبوعين فقط .

اجابت وردة : اتمي حديثك يا عزيزتي فانه غريب مدهش . وما هو ذلك السر الذي كتمه والدك عنك طول هذه المدة .

تأوهت لميا . وقالت : علمت ذلك في يوم من ايام تشرين سنة ١٨٣٩ كما ذكرت لكِ . فدعاني والدي بعد ان مهّد السبيل للافضاء لي بذلك السرّ الى نزهة وقضاء النهار في مرج يملكه يبعد مسير نصف ساعة عن قصرنا . وكان الافق صاحياً والنسيم عليلاً يزيد في بهجته تغريد البلابل المبكرة وزقزقة العصافير المتنقلة .

ولبست عباءتي وتلثمت بالكوفية هرباً من تطفل المارة واجتناب نظراتهم وامتطيت فرسي وسرت الى حيث كان ابي بانتظاري .

والتزم الصمت والدي على غير عادته . ولم يكلمني سوى بضع كلمات مقتضبة كأن يسألني اذا كنت بحاجة لامر ما ، او اذا كنت مرتاحة .

فساءني سكوتهُ وحسبت له الف حساب . وعهدي بهِ منشرح الصدر بادي النشاط ، وطالما حاول ادخال البهجة والسرور الى قلبي باساليب شتى . واخذت اتساءل عن سبب صمتهِ وعن دلائل الكآبة المرتسمة على وجههِ فلم اهتدِ .

ووصلنا الى المرج وبعد ان اخذنا قسطاً من الراحة نهض والدي واشار الى مربيتي باقوته التي صحبتنا تحمل زاد النهار وقال : لا تغفلي عن الفرسين في غيابنا واتركيها في المرعى الى ان نعود .

ومشى والدي ويده في يدي ولم ادرِ بانه يقتادني الى ضريح امي ولم يكن قد جاء على ذكره البتة . وبدا لنا ضريح نصب فوقه صليب حجري ، يضم رفات امي .

وسبقني ابي وجثا الى جانب الضريح واخذ يصلّي ويتمتم بكلمات متقطعة مقرونة بالحزن والخشوع .

فجثوت الى جانبه ولم اتمكن من كبت دموعي واطلاق العنان لزفراتي وارتفع صوتي بالبكاء عندما قرأت اسم امي على بلاطة القبر .

فنهض والدي وجعل يربّت على كتفي يتدفق الحنان في

صوته المتهدج وقال : تشجعي يا فتاتي وكفكفي دموعك . فالله وحده كفيل اليتامى وملاذ الحزانى .

فقالت وردة : لله ما اقسى الموت وما امرّ فراق الاعزاء !

وارسلت لميـاء تنهدة حارة واردفت : ثم امسك ابي بيدي وجثونا معاً امـام القبر . واحنى ابي رأسه بخشوع واحترام وقال : انني اشهد رفات امك على صدق ما ساقوله لكِ يا حبيبتي .

* * *

كانت الروح تتحشرج في صدرها عندما اقسمت لها ان انفّذ كل ما توصي بهِ دون ان اخلّ بحرف من وصيتها .

فمدّت يدها الهزيـلة وامسكت بيدي وقالت : احلفك بكل مقدس في السماء وعزيز لك على الارض ان تربط حياة ابنتنا لميـاء برباط الزواج المقدس بحياة ابن اختي مرتا التي تقطن في عينطورا ، والغلام اكبر منها ببضع سنوات فقط وكلاهما وحيد ، وطالما تمنيت واختي تحقيق هذه الامنية . اما اذا حدث ما لم يكن بالحسبان فلتتزوج بمن تهوى ولتكن لها حرية اختيار نصيبها .

فاقسمت لها بذلك . فاشرق وجهها بنور الغبطة وابتسمت ويدها ممسكة بيدي واسلمت الروح .

فقالت وردة : غريب امر هذه الوصية . ولست اذكر اني سمعتك تذكرين تلك الحالة مرة واحدة . ولا سمعنا انها جاءت لزيارتكم .

اجابت لمياء : وانا اشدّ استغراباً منكِ .. وجلّ ما اذكره انها جاءت لزيارتنا مرة واحدة فقط وكانت تصحب ذلك الغلام ، وكنت طفلة . وكل ما علق بذاكرتي كان كطيف في الكرى مرّ كغيرهِ من الاحلام . ولم نعد نسمع عنها شيئاً عقب وفاة امي .

وعند عودتنا من زيارة الضريح اخبرني ابي بانه بذل جهوداً جبارة لمعرفة سبب تخلفها عن زيارتنا فلم يهتدِ . وبعد سعي متواصل علم باختفائها مع ولدها اثر ثورة الحفد وعامية انطلياس الشهيرة . وحاول كثيراً الاهتداء الى مقرهما فلم يفلح .

اجابت وردة : اذن لقد اصبحتِ في حلٍّ من الوفاء بذلك القسم وتنفيذ تلك الوصية . واصبح بامكانك الزواج بمن تهوين .

وردة الترك ـ الاديبة اللبنانية

وتقي بان والدكِ حيّاه الله وابقاه سنداً لكِ وذخراً لا يقف في سبيل هناءك ، وهو حريص على سعادتك اشد الحرص .

ولا اكتمك بان لوالدك منزلة رفيعة في قلب والدي . ويشهد له بكرم الاخلاق ويقدّر فيه طيب العنصر والوفاء .

اصدقيني القول يا لمياء . أصحيح ما يروى عن هيام الضابط غالب العرباني بك ؟

فأطرقت لمياء يخفرها الحياء وقالت : لو خُيّرت في امري لما اخترت سوى الزهد والتنسك كي اصرف مدة حياتي بالصلاة والتعبد والانقطاع عن العالم بالابتعاد عن مشاكله وشروره . وهل بامكاني لجم السنة الناس عن نشر الروايات . آه يا صديقتي كم اتمنى لو يتيح الزمن لبنات جنسنا اختيار نصيبهن وتقرير مصيرهن بانفسهن دون تدخل الاهل والاقرباء .

فقالت وردة : كفاكِ تشاؤماً في الحياة وزهداً يا عزيزتي . واراك تهرفين بما لا تعرفين ... اتظنين ان حياة الرهبنة سهلة هينة . وهل تقوين على حياة الزهد والتقشف المضنية ؟! وانت ربيبة الدلال والقصور ... تبصّري يا لمياء في الامر قبل الاقدام عليه . وساعرض امراً عليكِ ارجو ان يجد قبولاً لديك .

فقالت لمياء : ساقبل ذلك العرض اذا كان بامكاني القيام بهِ .

اجابت وردة : اعتزمت على اصطحابك لزيارة دير السبع بنات . فيتاح لكِ عندئذٍ الاطلاع على نظام الراهبات وطرق معيشتهن . وعندها تقررين مصيرك بعد اختبار ذلك بنفسك . واكون انا قد وفيت نذري الذي نذرته لكنيسة السيدة في الدير .

فاتفقتا على زيارة الدير في الاسبوع التالي وانصرفت وردة الى بيتها .

الفصل الحادي عشر

●

زيارة دير السبع بنات

استفاقت لمياء في صباح اليوم المعيّن لزيارة دير السبع بنات برفقة وردة الترك . وكان يوماً من ايام الخريف الجميلة ، عندما ولّت جيوش الظلام الادبار امام طلائع النهار وكان نسيم الصباح يهب عليلاً فينعش الارواح وينشط الابدان . واسرعت بارتداء ملابس تليق بزيارة الدير ومقابلة راهباته . وطلبت الى مربيتها ياقوته ان تهيء هدية قيمة ترغب في تقديمها للاخوات الراهبات .

ثم امرت باعداد فرسين لها ولرفيقتها وردة . وهيأ الخدم جميع المعدات اللازمة لتلك الرحلة التي تستغرق خمسة ايام ذهاباً وايباباً . واسرعت لمياء للقاء وردة عندما اطلت على القصر . وامتطت كل فرسها واخذ يسير في ركاب كل منهما حارس يتقلّد السلاح ويحمل العصا تحسباً للطوارىء التي انتشرت في تلك الاونة اذ عمّت الفوضى واختل الامن ، وانتشر قطاع الطرق يتلمسون العيش بسلب المارة ونهب ما يحملون عدا عما يواجههم من الوحوش الضارية والزواحف السامة .

وواصلتا السير الى وقت الظهيرة فترجلتا بالقرب من غدير ماء كثرت على جانبيه الاعشاب النضرة . وتمايلت بقربه اشجار الحور والصفصاف الظليلة . فجلستا في افيائها للاستراحة وتناول الطعام . ثم نهضتا تواصلان السير باتجاه الدير .

●

وقبل ان تلملم الشمس اذيالها الذهبية المنتشرة فوق المرتفعات الجبلية لاح لهنّ بناء الدير وما يحيط به من كروم وسور . فترجلتا وخلعت كل منهما حذائها ومشتا حافيتي القدمين الى باب الدير .

واسرعت الاخت شهيده ففتحت البوابة واستقبلت الزائرتين عندما سمعت صهيل الفرسين وقرع الباب . وبعد ان رحبّت بهما قادتهما الى غرفة الضيوف التي كانت بقرب المعبد الصغير الذي اقيم على اسم السيدة العذراء .

وعادت الى الخارج حيث وقف الحارسان واشارت لهما الى مرابط الخيل بعد ان سلمتهما مفتاح غرفة صغيرة الى جانب الاسطبل . واعتذرت لهما لابقائهما خارجاً وقالت : ان قانون الدير لا يسمح بدخول الرجال اليه والنزول فيه .

ودخلت لميـا. ووردة تواً الى المعبد وجثت كل منهما تصلي وتضرع الى الله ان يقبل نذرها ويستجيب دعاءها. وامتزجت صلوات لميا. الحارة بدموع سخية بينما كانت تقرع صدرها وتبتهل الى الله كي يشفي والدها ويرحم وحدتها.

واستمرتا جاثيتين اكثر من ساعة ونيف تصليان وتبتهلان وما عتم ان سمعتا جرس العشاء. يدق فنهضتا من مركعهما واتجهتا ناحية الباب حيث كانت بانتظارهما الاخت شهيده. فادخلتهما قاعة صغيرة فُرش في ارضها حصير صغير، وتركتهما هنيهة ثم عادت تحمل طبقاً مستديراً صُنع من قش القمح وعليه بضعة ارغفة من خبز الشعير وصحن مجدرة وباذنجان مقلي وبصلتين وبعد ان رُفع ما تبقى من الطعام جاءت الاخوات ورحبن بالضيفتين الزائرتين واعتذرن عن قصورهن تجاههما.

ثم اشارت رئيسة الدير الى الاخت مرتا كي تعد لهما غرفة الضيوف للمنامة. فاسرعت واحضرت قطعة بساط من الشعر وضعت فوقه وسادة صغيرة وغطاء من الشعر ايضاً لكل منهما ثم تمنت لهما نوماً هانئاً وليلاً هادئاً. وقبل انصرافها قالت: انني في خدمتكما اذا احتجتما لامر ما فلا يقلقكما ايقاظي، وها غرفتي في الجهة المقابلة لغرفتكما، وسارت الى غرفتها بعد ان ودعتهما.

ولما انفردتا التفتت وردة الى لمياء وقالت : ما اصعب عيشة الزهد والتقشف يا عزيزتي ! وما اقسى الامها ! انهضي يا لمياء عن هذا البساط الخشن . فانني اشعر بالدم يسيل من قدميَّ لخشونتهِ وأحسّ بان سقف هذه الغرفة سيطبق على راسي . هلمي نجلس خارجاً ، تعالي معي يا لمياء فبعد قليل يتكبد القمر وجه السماء فيؤنسنا بنوره ويرافقنا بضيائهِ الى ان يلوح الصباح .

* * *

فنهضتا وخرجتا الى الخارج وجلستا كل على حجر الى جانب الغرفة . واخذتا تتحدثان عن عيشة الدير القاسية وحياة الراهبات المؤلمة . وسمعتهما الاخت مرتا تتحدثان وتتسامران فظنت انهما بحاجة الى امرٍ ما فخرجت من غرفتها لترى سبب قلقهما . وسألتهما هل من حاجة اقضيها لكما ؟

اجابت لمياء : اجلسي الى جانبي ايتها الاخت فنقضي الليل بالسمر وتخف عنا وطأته الثقيلة . فقد أرِقنا ولم نستطع الرقاد . فجلست الاخت مرتا بقرب لمياء وقد احنت رأسها الى اسفل واسندت رأسها بيدها .

— وسألتها وردة : منذ كم سنة تقيمين في الدير يا اخت ؟

— اجابت : منذ خمس عشرة سنة على ما اظن .

— وقالت وردة : هل لكِ اهل ؟

— فتأوهت مرتا طويلًا واجابت : وهل من مخلوق بدون اهل في هذا العالم يا سيدتي ؟

— وردة : ومن اي بلد انت ؟

— مرتا : من عينطورا المتن .. هل تعرفين احداً فيها .

واصغت لمياء لحديثهما وسرعان ما شعرت بعاطفة قوية تشدها الى تلك الاخت . وتزحزحت قليلًا عن المقعد الحجري وادارت وجهها ناحية الاخت مرتا وقالت : يا للصدف العجيبة .. انكِ من بلد خالتي اخت امي واسمك يشبه اسمها تماماً ، لولا ان تلك متزوجة وانتِ عذراء . فامي وخالتي كانتا وحيدتين لوالديهما هما مريم ومرتا . هل تعرفينهما ؟

فرفعت الاخت مرتا راسها واخذت تتفرس في وجه لمياء ثم سألتها : وما اسم ابيكِ يا سيدتي ؟

اجابت لمياء : اسمه الشيخ منصور الديراني ولم يرزق غيري لان امي توفت منذ زمن بعيد .

ولم تتم لمياء كلامها ، حتى سمعتا صرخة تختنق في فم الاخت مرتا وعلى الاثر وقعت مغشياً عليها لا تبدي حركة تدل على

الحياة . فذعرت لمياء ووردة للحادث وحارتا في امرها وهما غريبتان لا تعلمان شيئاً عن مداخل الدير ومخارجه ، واسرعت لمياء تقرع باباً بالقرب من مخدع الاخت مرتا ، حيث لمحت الاخت شهيده تدخله .

ونهضت الاخت شهيده متباطئة وفتحت الباب . فاخبرتها لمياء بما جرى للاخت مرتا . واعتذرت لها لاضطرارها على اقلاق راحتها .

ولم تتوانَ الاخت شهيده عن اسعاف الاخت مرتا فجاءتها بالمنعشات والمنبهات الى ان عادت الى وعيها لكنها كانت في حالة اعياء شديدة فحملنها الى مخدعها واغلقنَ الباب وراءها . غير ان بكاءها ونحيبها كان يصل الى مسامعهن دون انقطاع ويفتت الاكباد . ولم يتمكن من كبت دموعهن والرثاء لحالتها المؤسفة .

وجلست الاخت شهيده بقرب لمياء مكان الاخت مرتا وعدن للحديث وسألتها لمياء عمَّا اصاب الاخت مرتا وقالت : هل ما حدث للاخت مرتا ناتج عن الحزن او عن المرض ؟

اجابت شهيده : لست ادري يا سيدتي وكل ما اعلمه انني وجدتها فاقدة الوعي ومغمى عليها قرب باب الدير وذلك

منذ خمس عشرة سنة تقريباً . وتلافيت واخواتي نكأ جراحها والتعرض لسوألها عن امرها ومصابها ، لانها كانت في حالة حزن مستمر ونواح متواصل ... وتأبى ان تتعزّى .

وقالت لمياء : الم تحاولي موأساتها وانتزاع سرّ حزنها ؟

اجابت شهيده : لقد حاولت ذلك يا سيدتي . فسألتها عن اهلها مرة ورجوتها ان تخبرني عما سبّب حزنها .

فتفرست في وجهي ثم تنهدت بالم وحرقة وتساقطت دموعها كالسيل واصابتها رجفة قوية انقلبت الى نوبة عصبية حتى اغمي عليها . ومنذ تلك الحادثة لم احاول واخواتي سوألها عن سبب حزنها ولا عن سبب وجودها قرب الدير .

— وقالت وردة : وانتِ منذ كم سنة دخلتِ الدير يا اخت ؟

— اجابت شهيده : منذ خمس عشرة سنة وثلاثة اشهر يا سيدتي

— وردة : وكم كان عمركِ حين دخلت الدير ؟

— اجابت : قدر ما قضيت فيهِ بالتمام .

— وسألتها لمياء : ومن اي بلد انتِ ؟

— اجابت من غريفه الشوف

— لمياء. وهل اهلك على قيد الحياة ؟

— فتأوهت شهيده وقالت : لست ادري يا سيدتي لاننا منقطعات عن العالم لا تزور ولا تزار .

— لمياء : الا يزورونك ولو مرة في السنة او السنتين ؟

— شهيده : كلا يا سيدتي . لان اهلي يعتقدون انني في عالم الاموات منذ زمن بعيد .

— لمياء : هل كان مجيئك للدير بالرغم منهم ؟

— تنهدت شهيده واجابت : يصعب عليَّ الاجابة على سؤالك هذا لانهم لا يعلمون انني حية ارزق كما ذكرت

— لمياء : ولماذ لم تخبريهم بامركِ .

— شهيده : لانَّ ظروفاً قاهرة تحتم عليَّ الاختفاء والتكتم .

— وسألتها وردة : هل كنتِ تدعين بغير هذا الاسم قبل دخولكِ الدير ؟ لان اسمك يلتبس به الصفة والاسم . او لعل قانون الدير يحتم تغيير الاسماء بعد دخوله ؟

— اجابت شهيدة : لله درك يا سيدتي .. فاستنتاجك في محله وهذا يدل على نباهتك وشدة ذكائك . فانا لم اكن ادعى بهذا الاسم قبلاً .

– وسألتها لمياء : وماذا كنت تدعين يا اخت ؟

– اجابت شهيده : لا بأس من ذكر اسمي الاول لكِ – كنت ادعى هدلا الشوفي .

– لمياء : هل ترغبين ان اوصل خبر وجودك حية ترزقين الى ذويكِ واعلمهم انكِ تقيمين في هذا الدير ؟

صمتت الاخت شهيده واطرقت برأسها الى الارض ولم تجب

●

واردفت لمياء : ثقي يا اخت انني على استعداد لتأدية هذه الخدمة بكل طيبة خاطر لكِ . وقدّري كم يكون فرح امك وسرور ذويكِ عندما يعلمون بوجودك على قيد الحياة . ويعرفون مقرّك .

اجابت شهيده : كنت اود ذلك لولا الظروف القاهرة التي توجب عليَّ التخفي والكتمان .

فقالت لمياء : لا ضير عليكِ يا اخت اذا حدثتينا بقصتكِ واخبرتينا عن الاسباب الموجبة لما ذكرتِ . فرفيقتي وانا غريبتان . لا نذيع لكِ سرًّا ونعاهدك على كتمانه في اعماق صدورنا . واستماعنا لحديثكِ يسهّل علينا قضاء قسم كبير من الليل فنسهر ونتسامر ولا نشعر بثقل وطأتهِ علينا .

ولا نخفي عليكِ باننا لم نقوَ على الرقاد والاغفاء على فراش خشن لم نتعودَه .

تنهدت الاخت شهيده وقالت دعوني اقول مع القائل :

●

ان حظي كدقيق بين شوكٍ بذروه
ودعوا قوماً حفاةً يوم ريح يجمعوه
صعب الامر عليهم قالوا لهم اتركوه
ان من اشقاه ربي كيف انتم تسعدوه

اجابت وردة : هوّني عليكِ يا اخت ولا تقنطي من رحمة الله وهل فاتكِ قول الشاعر :

ان الامور اذا التوت وتعقدت جاء القضاء من الكريم فحلّها
فلعلّها ولعلّها ولعلّها ولعلّ من عقد العقود يحلّها

اجابت شهيده : تبدأ قصتي بمأساة بشرية مُثلت فصولها منذ بدء الخليقه على مسرح الدنيا ، اي ليس جديد تحت الشمس . وتتلخص مأساتي في تمثيلية سيطرة الرجل القوي المستبد على المرأة الضعيفة المستسلمة ، سواء اكانت زوجة ام ابنة ام اماً ام اختاً لذلك الرجل الظالم .

فمنذ ابتداء الخليقة وهو وحده يقرر مصيرها ، ويعبث برأيها ومشيئتها اذا عنّ له ذلك ، راق لها قراره ام لم يرق والويل لها اذا تمردت ورفضت ما يفرض عليها من احكام ومصير ، فجزاؤها الموت المحتم والبطش الذريع .

قالت لميا : يا للعجب وهل يبلغ الرجل هذا المقدار من الظلم والخشونة ؟

تأوهت شهيده وقالت : اراكِ تحاولين الوقوف على مأساتي المروّعة فلتكن مشيئتك واخذت تسرد حوادث قصتها مع سمعان الدير كما سبق ، وكيف احتال اخوها على قتلها الى اخر القصة . وتابعت الكلام بعد ان تفرست في وجه الزائرتين وقالت :

وتشأ الاقدار ان يمرّ بي احد المسافرين وهو في طريق عودتهِ الى بلدته ، فسمع صوت انيني واستغاثتي ، فبادر الى ناحية الصوت . ووجدني مهشمة الاعضاء يسيل الدم غزيراً من جراحي . فضمد جروحي بعد ان سكب عليها زيتاً كان يحمله ، واركبني على دابتهِ .

ورثى المسافر لحالي وجعل يسألني عن سبب سقوطي في تلك الهاوية ووجودي منفردة في ذلك الوادي السحيق . فلم

اقوَ على اجابته . وكيف اخبره عن فظاعة ما ارتكبه اخي من جرم منكر وانا لم اقترف ذنباً .

فظنّ الرجل ان سقوطي تأتّى عن زلة قدمي . ولم يدر في خلده انها جريمة بربرية وجناية وحشية . وهكذا يا سيدتي انطمست معالم تلك الجريمة واختفى خبري واثري .

وشاء المسافر الكريم ان يوصلني الى اهلي فسألني عن اسم بلدي والى اين اريد ان يوصلني ، فرجوته ان يوصلني الى هذا الدير البعيد ، فكثيراً ما كنت اسمع باسمه وذلك عندما كانت تجيء احدى راهباتـهِ تجمع النذور والصدقات للدير مرة كل سنة .

فتحركت عواطف الشفقة في قلب لمياء واحسّت بنغصة الفتاة المؤلمة فقالت لها : حقاً ان مأساتـك مروّعة فظيعة ، اثارت اشجاني وشفقتي . واود اخراجك من هـذا المأزق الحرج الذي لجأتِ اليهِ هرباً من الظلم والاستبداد وليس بملء ارادتك واختيارك . فاذا شئتِ ايتها الاخت ايجاد حلّ لحكايتك فانا على استعداد للسعي في حلّها . وسيكون اعتمادي على ذلك : بتوسط والدي لدى الامير بشير بعد ان اروي له قصتك فيعرضها على الامير الكبير فينصفك ويجمعك عن تحبين .

صمتت الاخت شهيده واطرقت براسها الى الارض وافصحت عبراتها اللؤلؤية عن الامها النفسانية وعما تقاسيه من آلام وحرمان .

ثم اخذت الديكة تصيح صيحات متوالية معلنة قرب انبلاج الفجر . وقرع جرس الدير يعلن موعد صلاة الصبح . فنهضن ودخلن المعبد وكل تصلي وتطلب الفرج من الله .

●

ودعت وردة ولمياء راهبات الدير بعد ان مكثتا فيه ثلاثة ايام بكاملها . غير انهما لم يتركا الدير قبل ان يستعلما عن الاخت مرتا التي كانت لا تزال منكمشة على نفسها وقد انحرفت صحتها اثر تلك السهرة . واوصت الراهبات بان لا يزعجها احد .

وشعرت لمياء بدافع قوي يشدها الى الاخت مرتا وتمنت لو يسمح لها بوداعها ومؤاساتها .

فاقتربت خلسة من مخدعها ونادتها باسمها وقالت : سلامتك يا اخت مرتا . لقد سامني انحراف صحتك . اننا عائدتان الى بيوتنا .. ادعي لنا بالسلامه واذكرينا في صلواتك . فالله يستجيب صلوات المتعبدات المتقشفات . ولم تسمع لمياء جواباً على كلامها سوى بكاء الاخت مرتا بصوت مرتفع .

ولما ابتعدتا عن الدير التفتت وردة الى لمياء وقالت : الا تزالين مصرّة على الانقطاع عن العالم وارتداء ثوب الرهبنة ؟ هزّت لمياء رأسها واجابت : الله يعلم ذلك ولتكن مشيئته.

قالت وردة : وهل تقوين على احتمال حياة الدير القاسية بعد ان لمست ذلك لمس اليد ؟!

واجابت لمياء : سأعوّد نفسي على احتمال الالام الجسدية اذا شاء الله ودخلت الدير ، لاربح رضى المولى وأريح ضميري وقلبي بابتعادي عن متاعب الحياة ومشاكلها .

فابتسمت وردة وقالت : يخال لي ان لكل اخت مأساة وقصة تدفعها للالتجاء الى الدير . وثبت لي ذلك بعد ان سمعت حكاية الاخت شهيده . وما رأيت ولمست من اغماء الاخت مرتا . ولست ادري الدافع لرهبنة بقية الاخوات لان المدة القصيرة التي قضيناها في الدير لم تتح لنا الاحتكاك بهن والاستماع الى حكاية كلّ منهنّ . غير انني اعتقد ان الدير ملجأ للتائبات وحصن منيع للمتعبدات . فتنهدت لمياء ولم تجب .

الاخوات مرنا وشهيده

الفصل الثاني عشر

●

بوادر الثورة

ولم يطل الوقت حتى ظهرت بوادر الثورة في جبل لبنان واخذت تشتد وتشتعل بشكل مريع وكان ذلك في اوائل سنة ١٨٤٠ .

فاضطر ابرهيم باشا الى سحب جيوشه من السواحل والاعتصام في الجبال ، بعد ان اشتدت على رجاله المطاردة من كل النواحي فما لبثوا ان انهزموا من سوريا ولبنان .

وتم جلاؤهم الى مصر بعد ان قاسوا اهوالاً لا توصف ومات منهم الوف على الطريق . غير ان نفراً من القواد والضباط تمكن من الفرار والالتجاء الى بيت الدين يحتمون بالامير بشير .

وكان جابر الحلواني رفيق غالب العرباني بين اولئك الضباط اللاجئين ، فاضطر الامير الى اخفائهم في احد الاديار بعد ان اوصى بهم رئيس الدير ورهبانه .

فرحّب الرئيس بهم وكتم امرهم واوصاهم بالتخفي والتستر بعد ان البسهم لباس الرهبان . واسم ذلك الدير

(دير مار ساسين للرهبان الانطونيين قرب برمانا) .

ونال اخصاء الامير بشير واصدقاءه الاضطهاد الشديد من رجال الثورة والداعين اليها ، واندفع اكثرهم اندفاعاً اعمى بغية الانتقام والاخذ بالثأر من الموالين للمصريين .

فكانوا يقدمون على احراق قصورهم وسلب دورهم . يروّعون الامنين في بيوتهم اذا تمنعوا عن السير في ركابهم ورفضوا مساعدتهم للانتقام من اعدائهم والاخذ بالثأر من مسخريهم .

●

وثورة الشعب لكرامته وحقه مريعة وهائلة ، لا سيما العامة منهم ويشبّه انتفاضهم بنار آكلة متأججة تندفع في سيرها اندفاعاً هائلاً وتلتهم الاخضر مع اليابس . وغالباً تأخذ البريء بجريرة المجرم . او كتيار ماء منحدر يجرف في طريقه كل ما يجده من جماد او حيوان . وويل للظالمين يوم ينتفض عليهم المظلومون ويثورون لنيل حقهم والاحتفاظ بكرامتهم.

ولم ينجُ قصر الشيخ منصور الديراني من طغمة الثوار واذى المنضمين اليهم . فذوو الاغراض الدنيئة ينتهزون مثل تلك الفرص لتحقيق مآربهم السافلة في كل العصور .

وكان قد مضى على وفاة الشيخ منصور اكثر من شهرين حيث رقدته رقدته الابدية الى جانب زوجه الفتية . وترك

فتاة وحيدة ثريّة فريسة الوحدة واليتم . والاجل المحتوم لا يرحم شيخاً ولا يرثي ليتيم .

فحزنت لميا. لفقده حزناً شديداً وناحت على فراقه نوح الورقا. ورثته بكلمات مفجعة اشبه برثاء الخنسا. . وأبت ان تتعزى بعد ان اغلقت باب القصر بوجه كل طارق ، وانكمشت على نفسها تندب حظها وتفكر في ما يخبي. الدهر لها في جعبته من بلايا ومصائب ، تجانب فجيعتها بامها وابيها . ولم تفلح مربيتها ياقوته على اعادة العزا. لقلبها وتفريج كربتها . ففي ذات صباح دخلت غرفة سيدتها وجثت الى جانب فراشها ثم امسكت يد مولاتها واخذت تقبلها وتذرف الدموع السخية . وقالت : انهضي يا سيدتي .. واشفقي على صباكِ وارفقي بصحتك .. فالحزن ذهب بنضارة وجهك والبكا. اذبل نور عينيك . فالحزن والبكا. لا يعيدان الموتى الى الحياة .

انظري الى الخارج وتأملي جمال النهار ، فها زقزقة العصافير وتغريد البلابل تزيدان في بهجته وكل ما يحيط بكِ زاهٍ مبهج ، ابتسمي للحياة تبتسم لكِ . كفاكِ تشاؤماً ، ولمَ تتشاءمين ؟ وقد حباكِ المولى كل ما تتمناه فتاة في عمرك . فوهبكِ جمالاً ومالاً يليقان بكِ . ويتمنى الامراء

وارباب المناصب نظرة عطف منكِ . وكلهم يطلبون رضاكِ فالى متى تتنكرين لكل طالب وراغب ؟

تنهدّت لميا. واجابت : اعلمي يا ياقوتــه ان الحزن اغلق قلبي ، وفقد والديَّ جعلني ازهد في الدنيا واتنكر لملاهيها .. آه يا ياقوته لو لم اعاهد والدي واقسم له ان لا ادخل الدير قبل بلوغي التاسعة عشرة من العمر لكنت دخلته عندما خرج جثمانه من باب القصر .

وخيّــل لهما ان وقع اقدام تقترب من القصر . فاسرعت ياقوته لترى من القادم ولتعلم ان كان صديقاً ام عدواً ، بسبب انتشار الثوار وقطاع الطرق في تلك الايام .

واطلّت ياقوته من شرفة تطلّ عــلى مدخل القصر ، فبدا امامها رجل جاحظ العينــين كثيف الشاربين ربع القامة غليظ الرقبة يرتدي لباس الفرسان .

— فسألته : ما هي حاجتك ايها الفارس ؟

— اجاب : اريد مقابلة ربة القصر .

— اجابت : ان مولاتي ترفض مقابــلة اي انسان بداعي الحداد .

— اجاب : لا بأس عليها من مقابلتي ، افتحي البــاب

وافسحي الطريق .. وقولي لمولاتك : انني لا اخرج من هذا القصر قبل مقابلتها ولو اضطررت للاقامة فيه شهراً كاملاً .

فعادت ياقوتـه الى مولاتها وهي ترتجف من الرعب وقالت : مولاتي ان فارساً بالباب يصرّ عـلى مقابلتك يصحبه عشرة فرسان اشداء شاكي السلاح . لم يبـالِ بقولي عندما افهمته انك لا تقـابلين احداً واقتحم الدار قسراً عني دون انتظار جوابك .

فاضطربت لمياء وقالت : من يكون هـذا المتطفل الوقح وما شأنه ؟ ادخليه الى قاعة الاستقبال وساوافيه بعد هنيهة . وبعد ان فكرّت في ما يكون الدافع لذلك الفارس المجهول لاقتحام قصرها ، نهضت وارتدت ثيابها بعد ان اخفت بينها خنجراً مسموماً وغدارة سريعة الطلقات لانها كانت قد اعتزمت عـلى قتلهِ اذا عجزت عن الدفاع عن شرفها والذود عن امتهان كرامتها . او اذا اراد سوءاً بها .

دخلت لمياء قاعة الاستقبال ترفع رأسها بانفة واباء . وكانت تفكر في من يكون ذلك المتطفل ، والراغب في مقابلتها قسراً .. وسرعان ما اعترتها الدهشة عندما وقع نظرها على ذلك الزائر الوقح الذي لا تذكر انها تعرفه او رأته من قبل .

فوقفت مقابله دون ان تمد يداً لمصافحته وسألته : ما هي بغيتك من مقابلتي ايها الرجل ؟ وقد علمت بان لا رجال تحمي القصر من المغتصبين الادنياء ولا حرس يردع الراغبين بزيارتنا قسراً .

وعهدنا بالجند والفرسان يحمون الديار ويحافظون على الامن . وما اعتدنا ان نراهم يروّعون النساء في عقر ديارهن . فهل لك ان تبرهن عن نبل غايتك لعلنا نقبل لك عذراً ؟

●

فكان لقولها وقع اشد من وقع السهم على قلبهِ وظهرت بوادر الغيظ على وجهه لكنه تظاهر باللين وسعة الصدر واجاب : لقد اخطأت مولاتي التعبير عن زيارتي وتأويل سبب اصراري على مقابلتك . فانا لم اقصد سوى حمايتك ابان هذه الثورة الطاحنة ، وقد اعتزمت صيانتك كحدقة عيني كي لا ينالك اذى من اي غادر اثيم .

ثم جثا على ركبتيه وقال : سيدتي ... لمياء ... انني اهواكِ ... فارثِ لصبٍ قد كواه هواكِ . واعلمي بان حبك اضرم ناراً تأججت في فؤادي ، وهواكِ افقدني عقلي ورشادي .

اجابت لمياء وقد اعترتها الدهشة مما سمعت وقالت :

يدهشني حديثك ايها الفارس فهو اغرب ما سمعت من مفاجئات في حياتي . فهل لي ان اعرف هويتك اولاً وتاريخ هواك ثانياً ؟

فانتصب واقفاً واجاب : اسمي قسطه الرومي يوناني الاصل . املك المال والجاه الى جانب ما اتمتع بهِ من صحة وبطولة التي تعتز بها بنات حواء وجميع هذه تؤهلني لطلب يدكِ وتشفع بي للاقتران بكِ . اما تاريخ هواك وامتلاكك شغاف قلبي فيعودان الى حفلة السباق التي اقامها الامير خليل وكنتِ انت زينتها دون مزاحم .

فاسرتِ قلبي بنظراتك الفاتنة وجمالك الساحر . وقد جئت يدفعني الهوى لاسألك عن المكان الذي ترغبين الاقامة فيه . فاقيم نفسي حارساً اميناً على راحتكِ وتكونين معززة مكرمة . وساغدق عليكِ من الحلى والجواهر ما لا يحصى . وثقي بانني ساجعلك اسعد امرأة على وجه الارض . ولا اكتمك بانني بذلت جهوداً في ما مضى لابلغك مقدار حبي واعلمك بشدة وجدي فلم اوفق لذلك واخيراً توسطت ابرهيم باشا لدى الامير بشير صديق والدك ليطلب لي يدكِ ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن . وذلك بسبب انهزام المصريين وارتحال الامير عن البلاد . فهل آمل ان تبادليني حباً بحب ؟

روّعت لمياء عند سماعها ذلك الحديث المؤلم وهمست لنفسها : ايكون الرجل الواقف امامها يقرأ عليها سور هواه هو .. هو .. سبب موت والدها . ووقوع النفور بينه وبين الامير . مما عجّل باجلهِ وموته ؟

فاخذت تتفرس في وجهه بشيء من الحنق والرعب واجابت وهي تتميز غيظاً . ساء فألك ايها المتيم المغرور ؛ فالتي تبثها هواك قد نذرت العفة منذ نعومة اظفارها ، ولا يغرّنك ما املك من ثروة وعقار ... لانني اعتزمت على ارتداء ثوب الرهبنة عن قريب وساوصي بجميع ما املك للاديار ... فانصرف غير مأمور .. وفتش عن عروس احلامك في غير هذا المكان وادارت وجهها لتعود الى غرفتها ..

* * *

فاعترض سبيلها وقال : لقد ساءني اعراضك عني ورفضك طلبي بجانب ما ابديته من هزء وسخرية مؤلمة . وضربتِ بكل وعودي وعهودي عرض الحائط . فآلمتِ نفسي وجرحتِ قلبي جرحاً بليغاً . أهذا جزاء ما اردت تحقيقه لكِ من سعادة وهناء ؟

غير انكِ ستندمين اشد الندم على ما تفوهتِ بهِ من

تحقير واهانـــة وذلك عندما ينقلب هوى الماثل امامك الى بغض شديد وانتقام هائل .

وسوف لا احجم عن سحق قلبك سحقاً مريعاً واجعلك عبرة لمن اعتبر . وهز رأسه ونار الغيظ تتطـاير من عينيه وقال : اعلمي يا لمياء انني لا اجهل ما تكتمين من هوى وما تتذرعين بهِ من نذر وما توهين بهِ من اعتزام الرهبنة .

ويؤسفني عندما ارى من كانت في منزلتك تغرها مظاهر البطولة الزائفة والجرأة الكاذبة ، وقد اجاد تمثيلها بين يديك رجل لقيط لا حسب له ولا نسب ... وانتِ .. انتِ سليلة النبل والشرف تندفعين وراء حب وضيع يقودك الى الذل والعار ..

اما لمياء فاشارت بيدها الى الباب . ولم تنبس ببنت شفة وخرج قسطه من القصر ونار الغضب تستعر في صدره وهو يتهدد ويتوعد بالانتقام .

الفصل الثالث عشر

●

غالب العرباني والاخت مرتا

— الاخت مرتا : أترى تلك الاطلال التي تقع على ذلك المرتفع ؟ هي بقايا بيت متداع دارس الاطلال ، قيل انه كان مسكناً للجن والعفاريت — ورسمت اشارة الصليب — وانتشرت الاشاعات عن مشاهده المرعبة التي كانت تزعج سكان تلك البقعة الهادئة . فهجرها سكانها وامست خراباً

— الغريب : هذا حديث خرافة يا اخت لا اصدّقه

— الاخت : فرمقته بنظرة غضب وقالت : الا تصدق قولي يا رجل ؟ كان لرب ذلك البيت خمسة فتيان ممتلئين صحة ونشاطاً قضي عليهم الواحد تلو الآخر لان اللعنة تبعتهم الى النهاية .

— الغريب : ولما يا اخت ؟ واي لعنة تعنين ؟

— الاخت : لعنة الشهداء الابرياء الذين قضي عليهم زوراً وظلماً

— الغريب : اتعنين ان رب البيت كان من المجرمين السفاكين؟

— الاخت : تنهدت واجابت : نعم ومن اشر السفاحين الطغاة

— الغريب : لعل موت اولئك الفتيان تأتى لوجود مرض قتال بقي ملتصقاً بالدار ؟

— الاخت : كيف كان الامر فهي يد العدالة والتأديب : هي يد الله

— الغريب : يخال لي انكِ تعرفين ذلك السفاح وتمقتينه فهل وصلت اذيته اليكِ ؟

تنهدت الاخت واجابت : نعم كنت واسرتي من اكبر ضحاياه . وقد لعنته مراراً كما لعنه سواي : والويل للظالمين الطغاة الذين لا يردعهم الضمير ولا يخافون الله . ووقفت تلهث من التعب بسبب ثقل جراب كانت تحمله على كتفها مملوء بالنذورات المختلفة التي جمعتها من القرى البعيدة . لان قانون الدير كان يفرض دوراً لكل راهبة لجمع النذورات فتذهب مرة كل ستة اشهر لقضاء تلك المهمة مساعدة للدير وراهباته اللواتي يعشنَ على صدقات المحسنين وتبرعاتهم .

واقترب الغريب منها ويده على رأسه يحمي بها جرحاً بليغاً وقال : اتسمحين لي يا اخت ان احمل عنكِ هذا الجراب الثقيل ؟ فترتاحين قليلًا .. فالاعياء بادٍ على وجهك والعرق يتصبب من جبينك . فكيف اطيق رؤيتك على هذه الحال وانا رجل قوي نشيط اسير الى جانبك فارغ اليدين ؟

اجابت الاخت : ان قانون الدير يفرض علينا قهر هذا الجسد الفاني وذلك بتكبد المشاق واحتمال المصاعب والالام .

الغريب : انا لا ادري شيئاً من قوانين الاديار ولا اعلم كثيراً عن الشرائع الدينية ، وكل ما اعلمه هو محبة الله والقريب وصنع الخير والابتعاد عن الشر .

وتقدم الغريب بالرغم منها وانزل حملها وحمله . ثم قال : حدثيني الان بامر ذلك الطاغية السفاك .

اجابت الاخت : انك ترغمني على افشاء سر كتمته منذ خمسة عشر سنة ولا بأس من ان اجيبك على سوالك جواباً سلبياً .

تنهدت الاخت وقالت : يعود حديث ذلك الطاغية الى تاريخ بعيد . الى بدء الخليقة . وهو الصراع بين قوى الخير والشر . وفي كل زمان ومكان يقع الحيف على الصديق فتصيبه النكبات وتتوالى عليه المصائب . بينما يتمتع المجرم والشرير بما اغتصبه من الخيرات عقب ذلك الصراع الجائر .

— الغريب : لقد اثرت رغبتي لاستماع حديثك وشوقتني لتتبع ما تعلمينه عن نهاية الفريقين . علّي استفيد من سماعه

ويكون درساً اتلقنه منك فيبعدني عن الاشرار واجتنب صراعهم المخيف .

اجابت الاخت وقد اعياها التعب : انزل الحمل عن ظهرك ودعنا نجلس تحت ظل تلك الصفصافة . فبالقرب منها بئر ماء عذب فنغسل وجوهنا ونروي عطشنا ثم نتم حديثنا .

— الغريب : لتكن مشيئتك يا اخت . ولست ادري لماذا لذّ لي حديثك وطابت لي رفقتك . واراني اشعر بقوة سحرية تجذبني اليكِ . فما الباعث يا ترى ؟ ولم ينتابني شعور كهذا من قبل .

اجابت الاخت : لعل لك امًّا او اختاً تشبهني بعض الشبه فاعتراك ذلك الشعور ؟

تنهد الغريب طويلًا وقال : للناس جميعاً امهات واباء واخوات وانسباء الاّ انا .

الاخت : اتعني انك يتيم الام والاب وليس لك اخوة او انسباء .

اجاب الغريب بصوت منخفض : لا احد ولا انسباء وليس هذا فقط بل انني اجهل حسبي ونسبي .

— الاخت : يا للعجب وكيف يمكن ان يكون ذلك ؟

الا تعلم اين نشأت واين تربيت ؟ الم يخبرك احد منهم عن اصلك وفصلك ؟

— الغريب : انك تحرجينني باسئلتك يا اخت : لكن لا بأس من ذكر امور يعود تاريخها الى خمس عشرة سنة خلت . وكأن الذاكرة تعود بي الى ذلك الزمن . ويخال لي انني وطأت هذه البقعة منذ عهد بعيد ولست ادري لما توهمت ذلك .

اجابت الاخت : يا للغرابة اتمّ حديثك وارو لي حكايتك فهي اقرب الى الحرافة منها الى الحقيقة . واصدقك القول دون مواربة : انك ادخلت اللهفة الى قلبي واشعر بقوة خفية تجذبني اليك كما شعرت انت ولست ادري اذا كانت المحنة تجمع قلبينا ام هي الغربة تؤنس نفسينا وقد قيل « ان الغريب للغريب نسيب »

اجاب الغريب : صدقتِ يا اخت كثيراً ما تجمع المحنة قلوب المظلومين والمعذبين في هذا العالم الشرير .

* * *

تفرست الاخت في وجهه واستوت في مجلسها وقالت : سألتك عن نشأتك وعن الذين تربيت عندهم فلم تجبني ، هل يسؤك ذكرهم لي ؟

اجاب الغريب : كلا يا اخت لا مانع البتة من جوابي على اسئلتكِ مع انها تعيد ذكريات مؤلمة الى قلبي : لقد نشأت وتربيت في كنف قبيلة من العرب اشفق عليَّ احد رعاتها عندما ضللت طريقي مساء يوم مشؤوم وكنت غلاماً . فلجأت الى البكاء والعويل فسمع ذلك الراعي صراخي ورثى لحالي ثم اصطحبني معه الى مضارب قومه وهناك استخدمني تسع سنوات متوالية قاسيت فيها من الاهوال والمشقات ما يطول شرحه ويصعب احتماله . وكنت اظن انني بدوي وابن لذلك الراعي . غير ان الاقدار شاءت انْ تعرفني حقيقة امري . فساقت غلاماً من البدو للاعتداء عليَّ فثارت حميتي واندفعت اذود عن كرامتي . وجرت معركة قاسية بيني وبينه انتصرت فيها عليه .

ولم تكن حيلة المغلوب سوى السباب والتعيير ، فعيّرني بانني لقيط .. مجهول الحسب والنسب . فآلمني ذلك التعيير وساءني تحلف البدوي وزوجه عن تكذيب الغلام واثباتهما ببنوتي لهما . وبقدر ما آلمني ذلك التعيير ونغصّ عليَّ العيش ، عوّلت على الهرب والفرار من تلك الديار . ففررت ليلاً وسرت انتقل من قرية الى اخرى الى ان تيسّر لي الانضمام في الجيش اللبناني وتقدمت من رتبة الى رتبة حتى اصبحت رئيس فرقة حرس الامير بشير .

فقالت الاخت : يتراءى لي ان سيرتك حافلة بالمصائب والنكبات العلّ ابويك اخطاءا وانت تتحمل تبعة خطأهما ؟

اجاب الغريب : لست ادري شيئاً ايتها الاخت عن صلاح ابويّ او شرهما لانني لا اعرفهما .

فقالت الاخت : ان حكايتك تثير الشفقة والحزن في القلب وتشبه حكايتي بعض الشبه فاكمل حكايتك لارى نهاية مأساتك المؤثرة .

اجاب الغريب : وكان الامير بشير يثق بي ثقة عمياء لا سيما عندما اندلعت نيران الثورة وامتد شرارها . فانتدبني كي اوصل رسالة سرية خطيرة لابرهيم باشا القائد المصري .

ودرى بذلك جواسيس الثوار . فكمن لي فريق منهم على الطريق وكانوا نحو عشرين فارساً . فاطلقوا عليّ نيران بنادقهم ، ورصاص مسدساتهم التي كثرت بين ايديهم عندما وزّعت عليهم بواسطة عمال الانكليز – اخصام الامير .

فاجفل جوادي ورماني عن ظهره بعد ان جمح بي هرباً من دوي الرصاص وكثرة المهاجمين فسقطت في واد سحيق . فظن الثوار انني قُتلت برصاص بنادقهم فتركوني وشأني ولحقوا بالجواد ليستولوا على الرسالة .

واصبت بجرح بليغ في رأسي . افقدني الوعي لكثرة ما نزف من دمي . واعلمي يا اخت ان يـد الله تتدخل في شؤون خائفيه ولو توالت عليهم المصائب .

ويندر مرور السابلة في الوادي الذي سقطت فيـهِ . لكن يد الله سبحانه ألهم احد الرهبان ان يمرّ بذلك الوادي السحيق ، فسمع انيني يصل متقطعاً الى اذنيـه . فأسرع يهرول ناحيـة الصوت . ودنا مني واجلسني وضمد جرحي ثم اشار الى كوخ بعيد وقال : يمكنك الان الوصول الى ذلك الكوخ وقضاء الليل عند صاحبه فهو رجل كريم ومضياف سخي . وساعود غداً قبل المساء واجلب دابة توصلك الى حيث تريد وانصرف .

— الاخت : المجد لله الحنـان الرحيم . فهو المعين وقت الشدة والمنقذ عند الضيق يا للعجب ! ما اشبه مصابك بمصابي ومأساتك بمأساتي .. فالعالم ملآن من المصائب والويلات ولا غرابة اذا دعي بوادي البكاء واردفت قائلة : عفواً لقـد قطعت حديثك بالرغم مني وذلك لشدة تأثري بهِ . فأكمل حكايتك وسوف لا اقطع حديثك بعد الآن .

— الغريب : لا بأس ايتها الاخت ، وقضيت تلك الليـلة بضيافة ذلك الحطاب الكريم فشاطرني طعامه وفراشه ووفر

لي الراحة بقدر امكانهِ وها انا الان في طريقي للقاء ذلك الراهب الجليل ، لانني اجهل سبل هـذه الناحية وليس لي مكان آوي اليهِ . لعله يشفق عليَّ ويقبلني في الدير الى ان اشفى من جرحي . وها انا اشعر الان بقشعريرة البرد تسري في عروقي . ولا بد ان تعقبها الحمى .

— الاخت : قاتل الله كل مجرم سفاك ، ولتحل نقمته على الاشرار الاشقياء . واردفت : لقد سرني ما ذكرت عن كرم اخلاق ذلك الحطاب الفقير . فكم من فقير يتحلّى باشرف السجايا وانبل الصفات ! وكم من غني كبير يتصف بادنى الخصال وادنى الخلال ! فالغني غني الاخلاق وكفاه بذلك نبلاً وشرفاً .

والتفتت اليهِ وقالت : لقـد تعبنا من السير وانهكنا الجوع وقد فات وقت الغداء ، وانا ما زلت صائمة لان قانون الدير يفرض الصوم علينـا يومياً . فهل تتكرم وتأكل لقمة معي .

— الغريب : يسؤني ان اشاطرك الطعام الذي جمعته بعرق الجبين ومن صدقات المحسنين ، غير انني اشاركك بهِ بشرط ان تقبلي مني تقدمة متواضعة اقدمها بواسطتك للدير . وهي بضع دريهمات بقيت في جيبي وعلى الاثر ناولها الدراهم .

فاخذتها من يده وقالت : ليباركك الرب يا اخي ويشفيك . وبعد ان اكتفيا من الطعام واستراحا من مشقة السير التفتت اليهِ وقالت : لقد التقينا وسرنا معاً ما يقرب من ثلاث ساعات وتحدّث كل منا عن ذكرياته الماضية من نعيم وبؤس ، وفاتني ان اسألك عن اسمك فهل تتكرم وتذكره لي لكي اذكرك في صلواتي دائماً .

●

تنحنح الغريب وصمت هنيهة ثم اجاب . اسمي غالب الغرباني نسبة لقبيلة العرب التي نشأت في وسطها كما ذكرت لكِ . اما انا فاعرف ان اسمي غالب فقط .

فتمتمت الاخت لنفسها همساً وقد اعترتها الرجفة : غالب .. غالب .. ما احب هذا الاسم الى قلبي ! واغرورقت عيناها بالدموع فبادرت تمسحها خفية كيلا تلفت انتباه غالب اليها .

— غالب : هل تتكرمين انتِ ايضاً ايتها الاخت فتذكرين لي اسمك فاذكره ما دمت حيًّا واذكر هذه الفرصة السعيدة التي جمعتني بكِ والتعرف اليكِ .

— الاخت : اسمي الاخت مرتا ..

تفرس غالب ملياً في وجهها وافلتت تنهدة من شفتيه اذ

عادت بهِ الذاكرة القهقرى الى زمن طفولتهِ : فهمس لنفسهِ : يا للعجب كاسم امي تماماً ... واطرق برأسه الى الارض وسالت من عينيه دمعتان لم يتمكن من كبتهما . وشعر بنداء قلبهِ يشتد فيجذبه جذباً قوياً نحو الاخت .. وهمس لنفسه حبذا لو صحّت الاحلام .. انها عذراء ..

استولى عليهما الذهول .. فصمتا متهيبين كل يخفي سرهُ في صدرهِ وافاقا من ذهولهما على صوت الراهب يسوق الدابة وينتهرها .. فنهضا وتأهبا للقائهِ . وافترقا كل الى وجهته بعد ان ودعتهما الاخت مرتا .. لكن روحها وقلبها رافقا غالب وبقيت تتلفت الى الجهة التي سار اليها الى ان غاب عن نظرها فتنهدت من قلب كسير وتسارعت العبرات حيث اخذت تتساقط من مآقيها وصرخت .. ولدي غالب اين انتَ ... ووقعت مغشياً عليها عندما وصلت الى باب الدير .

ومنذ ذلك الحين قررت الرئيسة اعفاء الاخت مرتا من الذهاب للقرى لجمع النذورات .

الفصل الرابع عشر

دير مار ساسين للرهبان الانطونيين

دخل غالب دير الرهبان الانطونيين بالقرب من برمانا وقد تولاه التعب وانهكه الاعياء بسبب جرحه البليغ ولكثرة ما نزف من دمهِ . فقضى ليله يتقلب من شدة الالم .

وانتابته حمى شديدة فأخذ يهذي لشدة وطأتها عليهِ . وقام على علاجهِ رئيس الدير الاب بولس الانطوني . لان الرهبان والكهنة كانوا يطببون الارواح والاجسام لقلة الاطباء وقتئذٍ ووقف على خدمته الراهب جبرائيل المصري وكان اشد الرهبان عطفاً عليهِ . فكان يلازمه نهاراً وليلاً الى ان خفّت عنه وطأة الحمى . واخذ يتماثل للشفاء . وعادت اليهِ ذاكرته ووعيه .

* * *

اقبل الراهب جبرائيل ذات يوم يحمل طعام الفطور الى غالب فتفرس غالب ملياً في وجهه ثم صاح .. صديقي جابر .. اين انا ؟ هل انا في يقظة ام في منام ؟ مالي اراك ملتفاً بثوب الرهبان ؟ فاشار الراهب جبرائيل اليه ان يسكت .

وقال : اخفض صوتك .. لا تتكلم وساحدثك بذلك في ما بعد ..

وابلّ غالب من الحمى اذ تغلبت قوى الشباب على وطأة الحمى وعادت اليه قوته ونشاطه . فطلب من الراهب جبرائيل الذهاب برفقته الى كروم الدير المجاورة لاستنشاق الهواء النقي والتمتع بصفاء الجو الساحر .

ولما ابتعدا عن الدير سأله غالب : اخبرني كيف وصلت لهذا الدير وما دعاك الى لبس هذا الثوب وانت غير مسيحي ؟

اجاب الراهب جبرائيل : الم يبلغك خبر انهزام الجيش المصري وانسحاب ابرهيم باشا الى مصر ؟

قال غالب : لست ادري شيئاً .. ويشهد جرحي على صدق ما اقول .

فروى له الراهب جبرائيل حكاية فراره وكيف تمكن وبعض انفار من رفاقه الضباط الوصول الى بيت الدين والاحتماء بالدير .

وسأله غالب : هل اصبح رفاقك رهباناً نظيرك ؟

اجاب الراهب جبرائيل : كلا يا صديقي فقد قيّض المولى لهم اناساً رحماء مكنوهم من العودة الى ديارهم سالمين . اما

انا ففضلت البقاء في الدير ونذرت نفسي لخدمة الله بعد ان تعلمت فرائض الدين المسيحي واعتنقته . آملًا في التكفير عن جرائم ارتكبتها زمن الحرب ، واثام اقترفتها ضد اخوان لي في الانسانية ، لم يضمروا لي عدواناً ولم يعتدِ احدهم عليَّ . وقد لُقبوا بالاعداء تبريراً لغاية الطامعين في السلطة والتوسع .

وحلّل اولئك جريمة القتل وبرروا اغتصاب بلاد المسالمين مستترين تحت ستار العداوة والعدوان .. يتخذون هذه الالقاب وما يشبهها للوصول الى امانيهم وما يصبون اليهِ من نفوذ وسلطة . فيقيمون مجدهم على اشلاء الانسانية البريئة . ولقبت بين الرهبان بالاخ جبرائيل المصري

فمدّ غالب يده وصافحه بحرارة وقال : اهنئك ايها الصديق لاختيارك طريق الحق وسبل التقوى والاستقامة . وابتعادك عن طريق البطل والندامة . بارك الله غايتك النبيلة واكثر المولى من التائبين امثالك .

واحاط الاخ جبرائيل غالب بذراعيه وقال : هل علمت بامر الانقلاب الذي جرى اثر الثورة ؟

اجاب غالب : لقد خفي عليَّ كل شيء . وقصّ عليه حكايته مع الثوار وما قاساه من الاهوال الى ان دخل الدير برفقة الراهب الانطوني .

وسأله الاخ جبرائيل : هل علمت بوفاة الشيخ منصور الديراني والد لمياء .

فصاح غالب وقد صعقه الخبر : ومتى كانت وفاته ؟ وماذا جرى لابنتهِ لمياء ؟

اجاب جبرائيل : لقد حزنت لفقد ابيها حزناً شديداً وهي لا تزال مقيمة في القصر . وسافضي اليك بسرّ ربما تستفيد من الاطلاع عليه .

واردف : لقد ارسلت لمياء رسالة مستعجلة للاب بولس رئيس الدير تشتكي بها على رجل اسمه قسطه الرومي . ذكرت عنه انه دخل القصر قسراً وهددها بالقتل وتوعدها بالانتقام لانها رفضت الاقتران بهِ .

فقال غالب : تباً له من نذل وقح ودخيل اثيم ! وقد صدق المثل السائر « غاب سبع البر وتفتل ابو الحسين ودار »

واردف جبرائيل : لقد نال الشقي جزاءه . فقتل إثر معركة بربرية نشبت بينه وبين الثوار عندما علموا انه من المتنفذين لدى ابرهيم باشا ومن جواسيسه الخبثاء . وعلمنا ان سبب تلك المعركة واحتدامها كان الوصيفة سعديه خانم جارية الست حسن جهان — زوج الامير بشير .

غالب العربانى ـ بطل القصة

وكان قد راق حسنها لاحد الثوار فهمّ باختطافها والفرار بها فاخذت تستغيث وتستنجد بصديقها قسطه . ومن غريب الصدف انه كان عائداً من قصر الشيخ منصور عندما التقى بهم يحملونها قسراً قصد اختطافها . فاسرع لنجدتها لكنّ الثوار تغلبوا عليهِ وقتلوه شر قتلة . اما سعديه فقد اختفى خبرها ولم يظهر لها اثر بعد تلك المعركة .

●

— قال غالب : يا للعجب ..! انك جعبة اخبار يا جبرائيل فمن اين استقيت جميع هذه المعلومات ؟

— اجاب جبرائيل لا تعجب يا صديقي من معرفتنا جميع الاخبار والاسرار فالاديار محط كل عابر ، وملجأ لكل مهاجر فمنهم تصلنا الاخبار عفواً وبدون تعب .

— وقال غالب : اخبرني كل ما تعرفه عن ليلى . ولا تخفِ من امرها شيئاً .

فابتسم جبرائيل وقال : لقد اطلعني الرئيس على رسالتها ، وجاء في ذيلها : سابلغ التاسعة عشرة من عمري بعد ستة اشهر ويحق لي حينئذٍ التصرف بميراثي كما ارغب

واتمنى . وقد اعتزمت ان اوصي بجميع ما املك مناصفة بين دير السبع بنات ودير مار ساسين . وكتبت الى جانب من الرسالة كلمة (ملاحظة) كتب في اسفلها : ... تقلدني جميلًا ايها المحترم اذا لبيّت طلباً لي احسبه في غاية الاهمية وهو : ارجوك ان تذهب الى دير السبع بنات وتحقق بامر احدى راهباتهِ التي اسمها الاخت مرتا . فقد اشتبهت بامرها عند زيارتي للدير قبل وفاة ابي . ولا اكتمك انني اشعر بهاتف داخلي ونداء قلبي ينبئانني بانها خالتي اخت امي ، او بالحري انها تعرف عنها شيئاً لانها اصيبت برجفة قوية ونوبة عصبية عندما ذكرت لها اسم ابي وامي .

ولي رجاء آخر وهو ان تفسح للاخت شهيده بخلع ثوب الرهبنة وارسالها اليَّ بعد ان تتصل بها وتسمع حكايتها المحزنة . وقد وعدتها اثناء تلك الزيارة بالسعي لاصلاح حالها وارجاعها لمن يهمهم امرها .

وبغت غالب لدى سماعه تلك المعلومات المثيرة . واشتد خفقان قلبه وقال : يا للتقادير الغريبة ويا لتدابير الله العجيبة ! وستندهش عندما تعلم بان الصدف جمعتني براهبة من راهبات دير السبع بنات واسمها الاخت مرتا .

وسرت برفقتها اكثر من ثلاث ساعات . حدثتني عن محنتها ولم تكتم عني خبر فجيعتها واسهبت في شرح المظالم التي لحقت باسرتها . ولمست بدوري كآبة خفية على وجهها . فثارت شفقتي عليها وشعرت بدافع خفيّ يجذبني اليها ونداء قلبي يدعوني لمحبتها ، لا سيما عندما علمت بانها تحمل اسم امي .

فقال جبرائيل : هل يطيب لك ان نعود الان الى الدير فاجمعك بالرئيس وهو ينبئك بحقيقة المعلومات التي استقاها من تلك الاخت عقب ذهابهِ لزيارة دير السبع بنات منذ اسبوعين ورجع بادي الاهتمام .

* * *

تأبط الاخ جبرائيل ذراع صديقه غالب وعادا ادراجهما الى الدير ثم استأذن له بالدخول على رئيسه فاذن له . فدخل غالب غرفة الرئيس : وجثا امامه بعد ان قبّل يديه والتمس منه ان يصغي لقصته .

ولبى الرئيس طلبه وقال : تكلم يا بني فكلي اذان صاغية .

وسرد غالب روايته من بدايتها . والرئيس يسمع حديثه باصغاء تام واهتمام زائد وهو يتتبع حوادث ما جرى له الى اخر القصة حتى وصل الى التقائه بالاخت مرتا التي تحمل اسم امه . وتشابه محنتهما . واخبره ايضاً عما ساوره من هواجس وظنون . وما شعر به من جاذب قوي ونداء قلبي يشده اليها .

فقال الاب بولس : يسرني يا بنيّ ان تصحّ احلامك وتتحقق ظنونك وامالك . والاله الذي جمع يعقوب بابنه يوسف قادر ان يجمعك بامك اذا شاءت مشيئته .

وسأله غالب : هل من مانع ايها الاب يمنعك من الافضاء لي بالمعلومات التي استقيتها من الاخت مرتا اثر اجتماعك بها ؟ لعلّ اطلاعي عليها يرشدني لمعرفة شيء عن امي .

فاجاب الاب بولس : لا مانع الان يمنعني من اطلاعك على ما طلبت . فقد اصبحت اليوم في حلّ من كتمان سيرة الاخت مرتا وما يتعلق بها من حوادث عقب الانقلابات السياسية . ولك كل الحق يا بني ولغيرك ايضاً ممن يهمهم الامر ان يتتبع سيرة تلك الاخت المسكينة ويتعرف الى هويتها .

واعلم ان التي كانت تدعى الاخت مرتا : هي بعينها زوج الشيخ اسعد ابي خطار من عينطورا المتن ، وخالة لمياء ابنة الشيخ منصور الديراني .

وقد اعترفت لي بقصتها وحدثتني عما نالها من ظلم وتشريد وروت لي عن حزنها على ابنها الوحيد غالب الذي تحمل انت اسمه . وذكرت لي كيف ضلّ ابنها وفقدته بين الاحراش اثناء فرارها من وجه الوشاة ، عقب وفاة زوجها البريء .

وحكت لي قصة دخولها للدير واضطرارها للتكتم والتخفي خشية عدم قبولها فيه . لان القانون لا يسمح بقبول غير العذارى فيه .

* * *

فلما وثقت من حديثها وتأكدت من صدق قصتها . افسحت لها بخلع ثوب الرهبنة وارسلتها معززة مكرمة الى ابنة اختها لمياء — ابنة الشيخ منصور الديراني التي كتبت لي والتمست مني ان اذهب للدير الذي تقيم فيه الاخت مرتا واتحقق من هويتها لانها شكّت بامرها عندما التقت بها في ذلك الدير . وكان قد اغمي عليها حين عرفتها لمياء باسم ابيها وامها .

فاسقط في يدها وضاق صدرها بسرها لانها لم تتمكن من اظهار نفسها لابنة اختها . فقال غالب : والان فما رأيك ايها المحترم ؟!

اجاب الاب بولس : الرأي عندي ان ترافقني الى قصر الشيخ منصور فتجتمع بمرتا ولمياء . ولعل لقاؤكم ينير سبيلنا ويرشدنا الى معلومات خيّرة سارة .

الفصل الخامس عشر

●

هواجس مرتا ولمياء

دخلت لمياء مخدع خالتها وبيدها رسالة جاءها بها ساعٍ من دير الاباء الانطونيين . ففضتها وقرأت فيها ما يلي :

ابنتنا المصونة لمياء

اهديكِ التحيات المسيحية واتحفك بالبركة الابوية . وبعد اخبرك بانني قادم لزيارتك في الاسبوع القادم ويكون برفقتي شاب كريم الاخلاق نبيل الصفات اسمه غالب العرباني ، وهو يود الاتصال بخالتك مرتا ليقف منها على سرّ لا يقدر على كشفه سواها . فمهدّي لنا السبيل الى ذلك اللقاء . واني لكِ من الشاكرين وتقبلي منا الدعاء . والبركة الابوية .

الاب بولس الانطوني

رئيس دير مار ساسين

وبعد ان اطلعت عليها واتمت قراءتها اسرعت الى خالتها واخذت تقبّلها وتضمها الى صدرها بلهفة وحنان .

وقالت : ما اسعدني بلقائكِ يا خالتـاه .. ! فوجودك الى جانبي فرّج كربتي وادخل العزاء والسلوان الى قلبي . فقد كنت في اشد الحاجة لمن يعزيني ويواسيني . فالشكر لله على مراحمه العديدة .

— اجابت مرتا : ان لله في خلقـهِ شؤون فهو يضربهم باليـد الواحدة ويضمد جراحهم بالاخرى . ولقد علمتني التجارب ان كل الاشياء تعمل معاً للخير للذين يحبون الله ويتقونه ، فما اعمق محبة الله وما اعظم رحمته .!

— اجابت لمياء : يخال لي ان يد الله العادلة تتدخل في شؤون خائفيه فينصفهم ويبدّد احزانهم ويبدلهـا بافراح . عندما يسلمون امرهم لمشيئتهِ ويخضعون لارادتهِ .

ولا بدّ بان الله سيفتقد مذلّتكِ ويعيد العزاء والهناء الى قلبكِ بعد ان احتملتِ بصبر شديد وايمـان قوي الشدائد القاسية وعانيتِ المحن المريرة .

— واردفت : تشددي يا خالتي واملكي اعصابكِ فانكِ قادمة على مفاجأة سارة . تنسيكِ آلام الماضي وتزيل من نفسكِ كل حزن ومرارة .

اجابت مرتا : ان رحمة الله لا تُحدّ ونعمه لا تحصى ولا تُعدّ ... فهو ملجائي وعليهِ اتكل .

وبدأت لمياء تمهد سبيل اللقاء المنتظر بلباقة وحكمة . ثم اخذت تشيد بصفات الشاب غالب العرباني وتطري على شجاعته وتثني على نبل اخلاقهِ وشهامتهِ . وقصت على خالتها بدء معرفتها بهِ ، وعن فوزه الرائع في حفلة السباق .

تأوهت مرتا وقالت : تذكرت الان انني التقيت بشاب جريح يحمل هذا الاسم ولست ادري اذا كان هو الشخص المقصود . واذكر انني سرت واياه مسافة طويلة وصرفت برفقته نحو ثلاث ساعات فحدثته عن محنتي ولم اكتم عنه المي ومصابي .

فاصغى باهتمام لقولي واسف لما انتابني من ظلم وجور ولا اخفي عليكِ يا لمياء ، بانني لم اتمكن من كبت دموعي عندما ذكر اسمه الذي يشبه اسم ابني المفقود .

وصدقيني يا عزيزتي بانني شعرت بعاطفة قوية تجذبني اليهِ ونداء قلبي يدعوني لمحبته والعطف عليه كمحبة الام ولهفتها . ولا ازال اذكر انه شعر بنفس شعوري . فهل من الممكن ان يحقق هذا الشعور ؟ اجابت لمياء : ان الله على كل شيء قدير وليس عليه امر عسير .

الفصل السادس عشر

•

اللقـــاء

دخل الاب بولس الانطوني قصر الشيخ منصور الديراني يصحبه الشاب غالب العرباني . فاستقبلتهم لمياء بالترحاب والسرور .

وطلب الاب بولس مقابلة الاخت مرتا على انفراد فسهلت له لمياء ذلك . فاختلى بالاخت مرتا يستمع الى بعض المعلومات آملاً ان تهديه الى التأكد من معرفة هوية غالب العرباني . وقد ثبت لديه من الدلائل العديدة والحوادث الغريبة انه ربما يكون هو ابنها المفقود ...

وجلست لمياء ترحب بغالب وتتحدث اليه ودلائل البهجة والسرور تظهر على محياها . واشارت من طرف خفي لغيابه الطويل وانقطاعه عن التردد لقصر والدها .

تأوه غالب وقال : تعذرني سيدتي لغيابي وقصوري لاسباب قاهرة – والكريم من عفا . واسكت الهوى لسان الحبيبين . وكل يسترق النظر لصاحبه ، ونابت لغة العيون

عن لغة الكلام . فافشت سر ما يكنه احدهما للآخر من شوق وهيام .

وصرف الاب بولس زهاء ساعة من الزمن يحقق ويدقق مع الاخت مرتا عن كل ما تذكره من العلامات التي تميّز بها ابنها المفقود .

اجابت مرتا : انني اميّز ولدي بعلامة لا يغيرها مرور الزمن ولا تطورات السنين . وهي وشم بشكل صليب على ذراعه الايسر وشمتُ تحته احرف اسمه .

نهض الاب بولس بعد ان رسم اشارة الصليب على صدره واخذ يتمتم ببعض الصلوات السرّية طالباً من الله ان يكشف ذلك السر المجهول .

وقفت لمياء وغالب احتراما للاب بولس عندما سمعا وطء اقدامه . وكان غالب يترقب بفروغ الصبر نهاية اعتراف مرتا والافضاء بما تعلمه من المعلومات والمميزات التي تميّز بها ابنها .

* * *

واقترب الاب بولس من غالب وقال : اكشف عن ذراعك الايسر يا بني . فاسرع غالب وكشف عن ذراعه فظهر عليه وشم بشكل صليب مكتوب تحته احرف اسمه .

وتفرس غالب في وجه الاب بولس وسأله : ما معنى هذا يا ابتِ ؟

اجاب الاب بولس : معناه يا بني انك انت الضال المنشود والغلام المفقود . واحاطه الاب بولس بذراعيه وعانقه وقد اغرورقت عيناه بالدموع .

وكانت لمياء قد غادرت الغرفة لتمكن الاب بولس من الاختلاء بغالب . فيممت وجهها شطر غرفة خالتها . فوجدتها مضطربة قلقة وقلبها شديد الخفقان . فصمتتا تنتظران الجواب كأن على رأسيهما الطير .

وعاد الاب بولس الى حيث تنتظر مرتا ولمياء . واقترب من مرتا ، ووضع يده على كتفها وقال بتمهل في قوله : ان الوشم الذي ذكرتِ اثبتته ذراع غالب . وهي .. هي .. العلامة التي تميّزين ابنك بها وتنطق بصحة هويته .

انهضي يا اختاه واشكري المولى الذي افتقدك برحمته واعاد اليك ولدك رجلًا نبيلًا يتحلى بافضل الصفات واكرم الاخلاق . تشددي يا ابنتي وتعالي معي . وحققي بنفسك . وانظري العلامة التي اشرت اليها . وقادها بيدها .. وهي ترتجف .. وقد تساقطت العبرات من عينيها كحبات اللؤلؤ .

وعانقت مرتا ابنها غالب عناقاً حاراً وكانت الآهات وذرف العبرات تعبّر عن حلاوة اللقاء. وقد صدق قول الشاعر :

●

يا عين قد صار البكا لك عادة تبكين في فرح وفي احزان
هجم السرور عليّ حتى انه من فرط ما قد سرّني ابكاني

اما لمياء فلم تتمالك نفسها من ذرف دموع الفرح واسرعت لاسعاف خالتها التي اغمي عليها وغابت عن الوعي .

وفي اواخر سنة ١٨٤٠ وقف امام مذبح كنيسة دير مار ساسين بقرب برمانا عروسان هما لمياء وغالب للاحتفال بعقد قرانهما وتقبل بركة الاكليل من رئيس الدير الاب بولس الانطوني .

وكان اشد الشهود غبطة وابتهاجاً الاخ جبرائيل المصري وياقوتة مربية لمياء لاجتماع الحبيبين وارتباطهما برباط الزواج المقدس . ثم افسح الطريق لدخول عروسين اخرين هما هدلا الشوفي التي كانت تدعى الاخت شهيده وسمعان الدير .

وبارك اكليلهما الاب بولس الانطوني رئيس دير مار ساسين وخرج الجميع يهنئون الزوجين ويتمنون لهم السعادة والتوفيق .

ابطال القصة

●

الامير بشير الكبير ... حاكم لبنان
ابرهيم باشا ... الفاتح المصري وابن محمد علي باشا
غالب العرباني ... رئيس حرس الامير بشير
جابر العرباني ... امين سرّ ابرهيم باشا ومرافقه الخاص
الشيخ منصور الديراني ... صديق الامير بشير الحميم
قسطه صاروفيم ... صاحب نفوذ لدى ابرهيم باشا
الامير محمود الفاعور ... رئيس قبائل عرب سورية الجنوبية
وردة الترك ... اديبة وابنة الشاعر نقولا الترك
سمعان الدير ... متعهد تموين الاديار
سعديه خانم ... وصيفة حرم الامير بشير
هدلا الشوفي ... فتاة شوفية
لمياء ... ابنة الشيخ منصور

●

ولقد اعتمدْ في كتابة هذه القصة على المراجع التالية : الغرر الحسان – تاريخ لبنان الموجز – مخطوطات الخوري اسطفان البشعلاني – الامير بشير للخوري بطرس صفير – مختصر تاريخ المشايخ اليازجيين لعيسى اسكندر المعلوف .

فصول القصة

●

الفصل	الموضوع	الصفحة
الاول	رسول ابرهيم باشا	٣
الثاني	قصر بيت الدين	١٥
الثالث	غالب العرباني	٢٢
الرابع	لمياء الديراني	٣٤
الخامس	حفلة السباق	٣٧
السادس	حكاية سمعان الدير	٤١
السابع	دير السبع بنات	٥١
الثامن	سعديه خانم	٥٧
التاسع	قاعة العمود	٦٧
العاشر	وردة الترك	٧٤
الحادي عشر	زيارة دير السبع بنات	٨٣
الثاني عشر	بوادر الثورة	٩٧
الثالث عشر	الاخت مرتا وغالب العرباني	١٠٦
الرابع عشر	دير الرهبان الانطونيين	١١٧
الخامس عشر	هواجس لمياء ومرتا	١٢٧
السادس عشر	اللقاء	١٣٠

COMMITTEE ON WORLD L[illegible]X,
AND CHRISTIAN LITERATURE
1955

من مطبوعات مكتبة المشعل ببيروت ص. ب. ٢٣٥

١٩٥٣